اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

الدكتور طه حسين



نفوس للبيع

دار المعارف

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٦٩٩]

تصميم الغلاف

الفنان شريف رضا

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ -- فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩- E-mail: maaref@idsc.net.eg

طه حسين

نفوس للبيع

دار المعارف

اقرأ

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة
ونشرها ، لم يفكروا إلا في شيء واحد ،
هو نشر الثقافة من حيث هي ثقافة ،
لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب
العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم
هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ،
والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب
من الحياة العقلية التي نحياها .

طه حسين

دار المعارف بمصر

العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٢

رسَائل تنسب إلى الجاحظ وأراها محمولة عليه، لأن تكلف التقليد فيها ظاهر.

طه حسين

أقبل عليَّ صاحبي مبتهجا باسم الثغر مشرق الوجه والنفس جميعا يقول: لقد جئتك بِطُرْفَةٍ ما أشك في أنك ستنعم بها بالا، وسترضى كل الرضا، وستؤثرها على كثير من الطيبات في هذه الأيام التي تقل فيها «الطيبات» : قلت: وما ذاك؟ قال: كتاب مخطوط لم تعرفه المطبعة بعد. ظفرت به عند بعض الوَرَّاقِين وفيه رسائل مختلفة للجاحظ وغير الجاحظ. من كُتَّاب القرن الثالث والرابع للهجرة. لم أكد أَنْظُر فيه حتى بهرني وسحرني وكرهت أن أوثر نفسي بقراءته، فجئت أُظْهِرُك عليه وأُشرِكُك في الاستمتاع به. ثم أخذ يقرأ عليَّ منه رسالة للجاحظ كتبها إلى محمد بن عبد الملك الزيات.

رسالة الشكر والكفر

يسَّرك الله للخير ويسَّر الخير على يديك، وهداك الله إلى الحق وجعلك إلى الحق هاديا، ودلك الله على الصواب وجعلك على الصواب دليلا، وعصمك الله من الشر الذى يلقى بأصحابه إلى التهلكة، وجنبك الباطل الذى يوفى بأهله على النار، وحماك من الخطأ الذى يورط أهله فى الحيرة، ويشرف بهم على الزيغ، وألهمك الله شكر النعمة فإنه تمام المروءة وكمال الرجولة، وسبيل الاستزادة من الخير، وآية الارتفاع عن النقص، والتنزه عما يجعل الرجل نذلا فسلا[1]، وخسيسا لئيما. ولهذا أخبر الله عز وجل بقلة الشاكرين للنعمة، الذاكرين للعرف، فقال عز وجل فى سورة سبأ - الآية ١٣ :

﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾

والله عز وجل، يريد لعباده الخير، ويأبى لهم الشر، ويدعوهم إلى أن يرتفعوا عن النقائص، ويتنزهوا عن الصغائر، فهو يذكرهم بنعمه عليهم، وآلائه فيهم، ويأمرهم ألا ينسوا ما يُهدى إليهم من فضل ويُسدى إليهم من معروف، وينذرهم بالعقاب الشديد، والعذاب الأليم إن كفروا النعمة أو جحدوا الصنيعة. يعجل لهم العذاب

١ - فَسُلَ الرجل - جَبُنَ ورَذُل (المعجم الوسيط - ٦٨٩).

فى الدنيا، ويؤجل لهم العذاب فى الآخرة. ولهذا قال عز وجل فى سبأ:

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

وقال فى أهل مكة كما روى عن ابن عباس فى سورة النحل:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾

وقد أدب الله رسله المكرمين، وأنبياءه المعصومين بهذا الأدب فجعلهم حراصا على الشكر، أباة للكفر لا يمسهم جناح رحمة إلا شكروا، ولا تنزل بهم النائبات إلا صبروا عليها، وشكروا لله إلهامهم الصبر وتمكينهم من الاحتمال. ولذلك قال عز وجل على لسان سليمان عليه السلام، لما سخر له الريح والجن وعلمه منطق الطير والحيوان فى سورة النمل:

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

ومن تمام الشكر لله ولىّ كل نعمة، والمبتدئ بكل إحسان، الشكر للمنعم من الناس والقيام بمكافأته بما أمكن من قول وفعل. لأن الله تبارك وتعالى نظم الشكر له بالشكر لذى النعمة من خلقه، وأبى أن يقبلهما إلا معا لأن أحدهما دليل على الآخر وموصول به، فمن ضيع

شكر ذي نعمة من الخلق فأمْر اللّهِ ضيَّع وبشهادته استخف. ولقد جاء بذلك الخبر عن الطاهر الصادق ﷺ فقال: من لم يشكر للناس لم يشكر لله. ولعمري إن ذلك لموجود في الفطرة قائم في العقل أن من كفر نعم الخلق كان لنعم الله أكفر، لأن الخلق يعطي بعضهم بعضا بالكلفة والمشقة وثقل العطية على القلوب، والله يعطي بلا كلفة. ولهذه العلة جمع بين الشكر له والشكر لذوي النعم من خلقه.

وقد أدب رسول الله ﷺ أصحابه بهذا الأدب وفقههم في هذا النحو من العلم، فضرب لهم فيه الأمثال الرائعة، وعلمهم فيه الحكمة البالغة. وقد روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأعمى وأقرع بدا الله عزوجل أن يبتليهم فبعث إليهم ملكا فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك ؟ قال لون حسن وجلد حسن، قد قذرني الناس. قال فمسحه فذهب عنه فأعطي لونا حسنا وجلدا حسنا. فقال: أي المال أحب إليك ؟ قال: الإبل. فأعطي ناقة عشراء، فقال يبارك لك فيها. وأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك ؟ فقال شعر حسن ويذهب مني هذا، قد قذرني الناس. قال فمسحه فذهب وأعطي شعرا حسنا. قال: فأي المال أحب إليك ؟ قال: البقر. قال فأعطاه بقرة حاملا، وقال يبارك لك فيها. وأتى الأعمى فقال أي شيء أحب إليك ؟ قال: يرد الله إلى بصري فأبصر به الناس. قال فمسحه فرد الله إليه بصره. قال: فأي المال أحب إليك ؟ قال: الغنم، فأعطاه شاة والدا، فأنتج هذان وولد هذا فكان لهذا

واد مـن إبـل ولهـذا واد من بقر ولهذا واد من الغنـم. ثم أتى الأبرص فى صورته وهيئته فقال: رجل مسكين تقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك. اسـألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسـن والمال بعـيرا أتبلغ عليه فى سـفرى، فقـال إن الحقوق كثيرة. فقـال له كأنـى أعرفك، ألم تكن أبـرص يقذرك الناس فقـيرا فأعطاك الله ؟ فقـال: لقـد ورثت لكابر عن كابر. فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى مـا كنـت. وأتى الأقرع فى صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا. فرد عليه مثل ما رد عليه هذا. فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت. وأتى الأعمى فى صورته فقال: رجل مسـكين وابن سـبيل وتقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالـذى رد عليك بصرك، شـاة أتبلغ بها فى سـفرى. فقال كنت أعمى فـرد الله بصـرى وفقيرا فقـد أغنانى، فخذ ما شـئت فوالله لا أجهدك اليوم بشـىء أخذته لله. فقال: أمسـك مـالك فإنمـا ابتليتم، فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك ».

والشـاكرون للنعمة بعد ذلك يختلفون، فمنهم من يرى شـكر المنعم مـن النـاس حقـا يجـب أن يـؤدى، ولكنـه يؤدى علـى الكره والمشـقة وتتعـرض النفـس فيـه لما لا تحـب، وتؤثـر ألا تتلقى النعمـة من أحد، فلا تحتاج إلى الشكر والاعتراف باليد المهداة. ولما أعان بعض المشركين أبا سـفيان يوم أحد فأنجاه من حنظلة بن أبى عامر، وقد كاد حنظلة يقتله، قال أبو سفيان:

ولو شئت نجتنى كميت طمرة ولم أحمل النعماء لابن شعوب

أراد أنه خير بين خزى الفرار وكان رئيس القوم، وبين الصبر حتى أنقذه ابن شعوب فاضطر إلى أن يعرف له النعمة ويشكر له الصَّنيعة، على ما فى ذلك من المشقة والكلفة.

ومنهم من يرى فى الشكر لذة، وفى الكفر ألما، فهو ينأى بنفسه عن ألم الكفر وما يورث من نقص المروءة، وهو يمعن فى الشكر ويغالى بالنعمة التى أسديت إليه.

وقد قال العباس الصولى يشكر عمرا بن مسعدة:

سأشكر عمرا ما تراخت منيتى
أيادى لم تمنن وإن هى جلت
رأى خلتى من حيث يخفى مكانها
فكانت قذى عينيه حتى تولت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه
ولا مظهر الشكوى إذ النعل زلت

وقال بعض الحكماء: إذا استطاع الرجل الحر ألا يدنيه أحد بنعمة يسديها إليه أو صنيعة يصطنعها عنده فليفعل، فإن شكر النعمة شىء لا يطيقه إلا أولو العزم. وقال ازدشير: الدين على ضربين أحدهما يمكن أداؤه فى غير زيادة ولا نقص، وهو دين المال الذى تقترضه من الذهب والفضة والعُروض، والثانى لا سبيل إلى أدائه مهما تفعل ومهما تبذل،

وهو دين النعمة المسداة والصنيعة المهداة لأن المعانى لا تُقَوَّمُ بالثمن ولا تحدد بالكيل والوزن والعدد. قال أبو اسحق النظام: « فإذا أديت إلى دائنك ما أقرضك من ذهب أو فضة أو عَرَض فقد أديت أخف الدينين حملا وأيسرهما مئونة، وبقى فى عنقك دين آخر لن تؤديه إلا بالشكر المتصل، والوفاء الدائم، والثناء الذى لا ينقضى ». والهزل فى هذا الباب، جعلت فداك، متصل بالجد، فحياة الناس فى جميع أبوابها وألوانها قد وصل فيها الهزل بالجد، والحق بالباطل، والحزامة الصارمة بالدعابة الحلوة والفكاهة المسلية.

وكان لنا صديق يعرف بأبى الرمل لم أر أجمل منه وجها، ولا أحسن منه منظرا، ولا أحلى منه حديثا، ولا أزكى منه ذكاء، ولا أزكن منه زكانة، ولا أنفذ منه بصيرة، ولا أدق منه فطنة، ولا أصفى منه ذهنا، وكان مع ذلك من أكفر الناس للنعمة، وأجحدهم للصنيعة، وأنساهم للمعروف، وأعقهم للصديق، وأشدهم انكارا لحق الولى، والتواء بدين المحسن إليه. وقد سمعنى أيام كنت أملى على أصحابنا فصولا من كتاب الحيوان فى الجن والغول وفى السعلاة والعفاريت وما قالت العرب فى ذلك من الجد والهزل ومن الصدق والكذب ومن الصحيح والمحال، فكان يظهر الرضا بما يسمع والارتياح له. ثم افتقدناه أياما، فلما سألت عنه بعض أصحابنا أخبرت أنه مريض قد ألزمته العلة داره، فرأيت عيادته على حقا وزيارته من بعض ما تفرضه العشرة المتصلة والمخالطة الطويلة. فسعيت إليه مع أصحابنا، فلم أكد أراه

حتى أنكرت من أمره كل شيء، فقد رأيت رجلا غيرته العلة وأنهكه المرض، حتى ذهبت نضرته، وذوت زهرته، واستحال جماله قبحا قبيحا، وصار إلى شر ما كان يكره له الصديق ويتمني له العدو. فلما سألته عن أصل علته، قال: ويحك أبا عثمان - عفا اللّه عنك وما أراه يفعل - فأنت أصل علتي ومصدر بلائي، وأنت الذي جر على المحنة وصب على النقمة وملأ قلب الصديق، وما أقلهم - على اشفاقا، وأفعم قلب العدو - وما أكثرهم - بي شماتة، فلولا ما حدثتنا به من أخبار الجان والعفاريت والغيلان والسعالى لما أصابني شر، ولا نزل بي مكروه. قلت وما ذاك أبا الرمل ! قال لقد أطلت التفكير فيما سمعت منك، وأكثرت إعادته والحفظ له حتى شغلت به عن كل لون من ألوان العلم، وعن كل ضرب من ضروب المعرفة، وعن كل فن من فنون الحكمة. ودفعت ذات يوم إلى البادية لا أعرف لذلك سببا إلا أني كنت أحدث نفسي بأني قد ألقى فيها من الأعراب من يحدثني بمثل حديثك عن الجن والغول. وإني لفي بعض الطريق في الصحراء وقد ارتفع الضحى وا متلأت الأرض حرا ونورا وترقرق الآل[1] على الكثبان من بعيد... وإذا امرأة تعرض لي لم أر أحسن منها حسنا ولا أبرع منها جمالا، ولا أملح منها قدا، وقد اتخذت زي نساء البادية وتزينت بزينتهن، فسألها من هي فتنبتني ضاحكة بأنها هي التي خرجت ألتمس الحديث عنها. قلت مرتاعا: يا هذه أوضحي

(١) الآل: السراب - المعجم الوسيط صـ ٣٢.

ما تقولين، فإنى لا أفهم عنك منذ اليوم! قالت: ألم تخرج ملتمسا لأنباء الغول متتبعا لأحاديثها ؟ قلت: ومن أنبأك بذلك ؟ قالت متضاحكة: ويحك أيها الرجل! ألم تعلم أننا نتصور فيما شاء الله من الصور، وأنا نخالط الناس فنسمع منهم، ونتحدث إليهم ونشاركهم فيما يأتون وما يدعون من الأمر، نراهم إن شئنا ولا يروننا، ونسمعهم إن أحببنا ولا يسمعوننا، ثم ننصرف عنهم إلى ديارنا والأرض كلها لنا دار، فإنى قد سمعت من صاحبك مثل ما سمعت من أخبارنا وأحاديثنا، فأنكرت منه ما أنكرت، وعرفت منه ما عرفت، ورأيتك بهذا الحديث معنيا وله حافظا وعليه مقبلا، فعلمت أنك قد خلقت للجن والغول، ولم تخلق للناس الذين تعيش معهم وتضطرب بينهم فلزمتك مصبحا وممسيا، ورافقتك غاديا ورائحا، وراقبتك يقظان ونائما، حتى إذا غدوت اليوم لما غدوت له رأيت أن قد بلغ الكتاب أجله وانتهى أمرك إلى مدته وآن أن تبلغ ما أنت ميسر له من عشرة الجن والغول، فتراءيت لك ثم أقبلت عليك. ثم أنا لن أفارقك منذ اليوم فستكون لى رفيقا، سواء أرضيت عن ذلك أم سخطت عليه. وقد وليت عنها مدبرا وعدت إلى دارى مسرعا، ولكنى لم أخط خطوة إلا رأيتها تخطو معى مثلها، وحديثها إلى متصل لا ينقطع، وإذا هى تلزمنى لزوم الظل، وإذا هى تبلغ معى هذه الدار وتقوم بينى وبين أهلى وولدى، لا أقول لهم شيئا إلا ردته على ولا يقولون لى شيئا إلا ردت على غيره،

ثـم هى تتشـكل لى فى أشـكال مختلفة وتتلون لى فـى ألوان متباينة. فإذا أحسـت مني إنكارا لبعض مـا أرى من أمرها قالت بصوت كأنه صوت الشيـاطين:

فما تدوم على حال تكون بها كما تُلون فى أثوابها الغول

قـال أبـو الرمل: فأنت كما ترى أصـل علتى، والحق عليك أن تجد لى منهـا مخرجـا وتلتمس لى منها شـفاء. ولم يكد يبلـغ هذا الموضوع من حديثه حتى ارتعنا جميعا، وأَخَذَنَا خوفٌ أى خوف. فقد سمعنا صوتـا يأتى من بعض نواحى الحجرة نسـمعه ولا نـرى مصدره، وهو يقـول: هيهـات هيهات أبا الرمل لن يجد لك أبـو عثمان من ضيقك مخرجـا ولـن ينتهـى بـك مـن علتـك إلى شـفاء إلا أن تتغير نفسك فتصبح شـاكرة للنعمـة، عارفة للصنيعة، وهى قـد فطرت على الكفر والجحود. وقد خرجنا مـن عند أبـى الرمل وليس منـا إلا مـن يتلو:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

قلـت لصاحبـى: أجادٌ أنـت فـى إضافة هذا الـكلام إلى الجاحظ ؟

قـال وهـو يغرق فى الضحـك: ما أكثر ما أضـاف الجاحظ إلى الناس ما لم يقولوا. فما يمنعنى أن أضيف إليه ما لم يقل . . !

رسالة الأمر والنهى

وفقك الله إلى الخير والبر، وعصمك من الشر والإثم، وهداك إلى الرشد المفضى بأهله إلى الجنة، ووقاك من الغى المفضى بأهله على النار، وحبب إليك الحق الذى يملأ العقل نورا وحكمة، وكره إليك الباطل الذى يملأ القلب غرورا وجهالة، وحملك على الجادة التى تنتهى بك فى ذلك ما تعمل إلى خير ما تحب لأمير المؤمنين من نصح ولرعيته من العاذية، ولنفسك من النجح وارتفاع الذكر وبعد الصوت وقهر العدو والاستعلاء على الخصم.

فقد قال الله عز وجل فى سورة النحل :

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾

وصرف الله عنك سوء الظن فإنه مفسد لصدق الإخاء مكدر لسريرة الصديق، منغص لذات النفس. وجعل الله موقع النصح الذى يقدمه إليك الصديق الحميم والمشير الأمين حلوا فى سمعك، عذبا فى قلبك، حبيبا إلى نفسك. فقد كان يقال لا يحسن بالوزير الناصح للملك والمشير الأمين عند السلطان ألا يقبل نصح أوليائه إن رفعوه إليه، فإنه إن أساء الظن بالناس أساء الناس الظن به وكان خليقا

أن يسوء به ظن السلطان.

وحدثني بعض أصحابنا من علماء الهند أن بيدبا الفيلسوف كان يقول لدبشليم الملك: إن علمت أن في بعض وزرائك استبدادا في الرأي واستكبارا على الإشارة وازورارا عن نصح الناصحين فأعلم أنه جدير ألا يصدقك الرأي ولا يخلص لك في النصح، فليس بناصح لك من لا ينتصح، وليس بمخلص لك من يشك في إخلاص الناس له. ولا ينبغي أن تأمن من لا يأتمن الناس، ولا أن تطمئن لمن لا يطمئن إلى أحد.

وكتب ارسطاليس صاحب المنطق إلى اسكندر: لا خير في الصديق إذا لم يؤثرك على نفسه، ولم يظهرك على دخيلة قلبه، ولم ينصح لك في الغيب والشهادة. ولا خير فيه إن أصفاك بكل ذلك ولم يكن له صديق يقدم له من ذات نفسه مثل ما يقدم إليك. فإن الرجل الذي يصادق من فوقه من ذوي الدرجات وأصحاب المكانة ولا يصادق من دونه من الأولياء والسوقة خليقٌ أن يكون أَثِرًا يحب نفسه ولا يحب غيره، ويبتغي بما يقدم إليك من النصح والمشورة أن يستأثر بك من دون الأولياء، وأن يختص نفسه بما يجد عندك من معروف أو سلطان.

جعلت فداك، إنما أكتب إليك ما أكتب من هذه الحكمة وأسوق إليك ما أسوق من هذه الأحاديث لأمر عرفته اليوم في الديوان، فضاقت به نفسي، وحزن له قلبي وأشفقت عليك من عاقبته،

وكرهت لك مغبته، وخشيت أن يتجاوز الديوان إلى مجالس الأشراف فى قصورهم، والقواد فى جنودهم، والعامة فى أنديتهم ومجالسهم، فيتحدث الناس عنك بما لم يتحدثوا بمثله عن الوزراء من قبلك، وتقع فى نفوسهم لك مهابة تقوم على الخوف والبغض، ولا تقوم على المحبة والتجلة، وشر ما يتعرض له أصحاب السلطان أن يهابهم الناس خوفا ورهبا، وخير ما يتاح لأصحاب السلطان أن يهابهم الناس حبا وإكبارا، وطمعا فيما عندهم من الخير، ورغبة فيما يجدون عندهم من البر والمعروف.

وقد كان كاتبك الحسن بن وهب يتحدث إلى بعض أصفيائه وأنا أسمع على غير علم منه بمكانى بأن شعرا قد رفع إليك فيه عيب لك ونقد لبعض عملك، فغضبت له وضقت به وأمرت بالبحث عن قائله لتذيقه غضبك وتصب عليك عذابك، وتعلمه عاقبة طيشه ومغبة استخفافه بالسلطان واجترائه على الحكام. ثم لم يكفك ذلك ولم يقنعك، فأمرت أعوانك من الكتاب والعمال أن يتقدموا إلى أصحاب الشعر المنظوم والكلام المنثور وإلى ذوى الأقلام المشرعة والألسنة المنطلقة ألا يذكروك فيما ينظمون من شعر أو يكتبون من نثر أو يديرون من حديث إلا بالخير، فإن جنح منهم عن ذلك جانح أو انحرف منهم عن ذلك منحرف فإن السجن له مهيأ والعقاب له مرصد، والعذاب عليه محتوم، وهو خليق إن مسه الأذى ونزلت به العقوبة ألا يذوق للعافية طعما

ولا يجد للحرية روحا، ولا ينعم بلقاء الأهل ومودة الصديق ونعمة الدعة، حتى يخرج من هذه الحياة ملوما مدحورا.

جعلت فداك، فإنى لم أكد أسمع هذا الحديث يُسِرُّه الحسن بن وهب إلى بعض خاصته وذوى مودته فيبسم له حين يتحدث، ويبسمون له حين يستمعون إليه، وتظهر فى وجهه ووجوههم آية الطاعة الساخرة والرهبة المستخفة، حتى جزعت وفزعت، وحتى ارتعت والتعت، وحتى أشفقت عليه من أمر تعرف موارده وتوشك ألا تعرف مصادره، وتتبين أوله وتوشك ألا تتبين آخره.

وهو بعد ذلك لم يتح لأحد من الناس منذ كانت هذه الأمة، وقامت هذه الدولة، واستقر سلطان المسلمين فى يثرب أيام الخلفاء الراشدين، وفى دمشق أيام بنى أمية، وفى بغداد أيام بنى العباس.

وما علمت - أصلحك الله - أن خليفة من الخلفاء أو ملكا من الملوك أووزيرا من الوزراء تقدم إلى الناس بمثل ما تتقدم به إليهم، وما علمت أن الناس استمعوا لمثل ذلك أو أذعنوا له أو اطاعوه، وقد هم زياد ببعض ذلك فأوعد وغلا فى الوعيد، وأنذر وأسرف فى النذير، وطلب إلى الناس أن يكفوا عنه أيديهم وألسنتهم ليكف عنهم يده ولسانه، فصانعه من صانعه، ونصح له من نصح، وعارضه أبو بلال مرداس. فقال له: إنك تحدثنا بغير ما يحدثنا به الله عز وجل، تزعم أنك ستأخذ البرىء بذنب المسىء والله عز وجل

يقـول فـى سـورة فاطـر - الآيـــة ١٨: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

قال له أبو بلال ذلك فى جماعة المسلمين والمسجد بهم ممتلئ، وزياد على منبره لم يفارقه، وعليه شارة الملك، ومن حوله قوة السلطان. ثم انصرف أبو بلال مرداس لم ينله من زياد كيد ولم يمسسه منه أذى. وقد كان لزياد ما علمت من القوة والبأس، ومن العنف والبطش، ومن اليد التى لم تكن تعرف القصر، والسهام التى لم تكن تعرف الخطأ وإنما تسدد فتصيب، وترمى فتصمى.

جعلت فداك، ومازال الناس يعدون على عبد الملك قوله حين جد الجد، وعظم الخطب، وانتشر الفساد فى الأطراف، وتفرق الناس شيعا وأصبح فى كل جزيرة أمير ومنبر، « من قال لنا اتقوا الله ضربنا عنقه »، يرون أنه تحدث بما لم يمكن له أن يتحدث به، وتكثر بما لم يكن يستطيع أن يبلغ من الأمر، وما أكثر ما قال الناس له اتق الله، وما أقل ما ضرب من الاعناق. وما أعرف أنه عاقب على مشورة أوعذب فى معارضة، وإنما عاقب من شق عصا المسلمين، وخلع يدا من طاعة، وفرق كلمة الأمة.

جعلت فداك، ولو أن هذا الأمر صدر عن أمير المؤمنين - أيده الله - لما رضينا ذلك له، ولا قبلنا ذلك منه، وهو خليفة رسول الله وابن عمه والقائم على سلطان المسلمين أعطوه بيعته عن رضا ودانوا له بالطاعة عن ثقة، فكيف بك وقد وليت الوزارة اليوم وقد يعزلك عنها

غدا. وأنت لا تقضى ما تمضى من الأمر إلا عن إذنه ورضاه، فكيف بك إذا نلت أحدًا بأذى وكفه عنه أمير المؤمنين، وكيف بك إذا ألقيت أحدًا فى سجن وفتح بابه له أمير المؤمنين، وكيف بك إذا تقدمت فى تعذيب هذا الشاعر أو هذا الكاتب ثم سعى السعاة إلى أمير المؤمنين بأنك تتهم بالظن، وتأخذ بالريبة، وتعاقب فى غير تثبت، وعفو أمير المؤمنين أوسع من سخطتك، ورحمة أمير المؤمنين أوسع من نقمتك، فماذا يقول الناس إن سخطت أنت ورضى هو، وعاقبت أنت وعفا هو. وعفو أمير المؤمنين لا يصدر عنه إلا مصاحبا بالبر والنعمة، فماذا يقول الناس إذا عاقبت أنت وعفا أمير المؤمنين، ثم اتبع عفوه بالنعمة والجائزة، وبالنائل والنافلة. ألست خليقا إذن أن تطلق ألسنة الناس فيك بما لا تحب وأن تعرض سلطانك للضعف وعزك للسخرية.

جعلت فداك، إن خير الوزراء من عرف لنفسه قدرها، ولم يجاوز بسلطانه حده، ولم يرفع نفسه إلى أعلى من الموضع الذى وضعه فيه أمير المؤمنين، ولم يعرض نفسه بذلك لإنكار المنكر واحتجاج المحتج، واحذر - جعلت فداك - أن يرقى الشك فيه إلى قلب الخليفة فيظن بك تجاوز الحد، ويتهمك بأنك تعطى نفسك من السلطان ما لم يعطك، وتخولها من القوة ما لم يخولك. وأمير المؤمنين لم يتخذ الوزراء ليبسطوا على الناس أيديهم بالأذى وليصبوا عليهم النقمة صبا، وإنما اتخذ الوزراء ليشيعوا فى الناس رحمته ونعمته، وينشروا فيهم بره وعدله،

ويرفعوا فيهم ذكره بالخير، ويطلقوا ألسنتهم بالثناء عليه، ويملئوا قلوبهم بالحب له. والحب لا ينال بالقسوة، والنصح لا يكتسب بالظلم، وليست إشاعة النقمة وسيلة إلى اكتساب الود ولا إلى اصطفاء النفوس. فانظر - أصلحك الله - فى أمرك وانصح لنفسك ولأمير المؤمنين. وانظر بعد ذلك فيما بينك وبين الله من حساب تستطيع أن تجعله يسيرا إن شئت، وتستطيع أن تجعله عسيرا إن أحببت.

واعلم - جعلت فداك - أن الزمان لا يثبت، وإنما هو منطلق دائما، وأن الأيام لا تستقر، وإنما هى نهار يتبعه نهار، والأحداث فى أثناء ذلك تحدث، والخطوب فى أثناء ذلك تلم، والنوائب فى أثناء ذلك تنوب، والوزراء يولون ويعزلون، والحكام ينصبون ويصرفون، والدنيا تقبل وتدبر، والحوادث تحلو وتمر، والرجل اللبيب من اعتبر بهذا كله فلم يسرف على نفسه، ولم يسرف على الناس، ولم يقدم بين يديه من العمل ما يسوءه فى الدنيا ويخزيه فى الآخرة. وقد أطلقت لسانك، - جعلت فداك - فى ابن أبى دؤاد وتقدمت إلى عمالك فى أن يقولوا فيه مثل ما تقول، وفى أن يبثوا حوله الأرصاد وينشروا عليه وعلى أصحابه العيون، ويرفعوا إليك من أمره ما ظهر وما خفى، وينقلوا إليك من حديثه وحديث أصحابه ما قالوا وما لم يقولوا. فكيف بك إذا دارت الدائرة، وألمت الملمة، ودعى ابن أبى دؤاد إلى الوزارة، وصرفت أنت عنها، وأمر ابن أبى دؤاد غدا بمثل ما تأمر فيه أنت اليوم.

- جعلت فداك - إن كرام الناس - وأنت منهم - يرفعون أنفسهم عن الصغائر، وينزهونها عن آثام القول والعمل، ويكبرونها عن تتبع الهفوات والتماس العثرات، ويصمون آذانهم عن عيب العائبين ولوم اللائمين. ولعلهم أحيانا - أن يسمعوا اللوم والعيب أكثر مما يسمعون للحمد والثناء - يجدون فى اللوم والعيب ما يصلحون به أنفسهم، وينقون به ضمائرهم، ويقومون به أعمالهم، ويجدون في الحمد والثناء تملقا يدفع إلى الغرور ويغرى بالصلف، ويخدع عما قد يكون فى النفس من خصال السوء.

وإنى لأحب لك أن تلام فَتَعْفُو، وأن تعاب فتصفح أكثر مما أحب لك أن تمدح فتعطى، وأن يثنى عليك فتكافئ على حسن الثناء.

وأنت بعد ذلك لا تستطيع أن تعقل الألسنة المنطلقة، ولا أن تحطم الأقلام المشرعة، ولا أن تمنع القلوب من الشعور، والعقول من التفكير، فدع الناس وما يشاءون أن يقولوا فيك من الخير والشر، ومن الحمد والذم، وانتفع بذلك كله فى إصلاح نفسك وفى تجنب ما يشينك إلى ما يزينك.

واذكر قول الشاعر القديم:

اذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

وكان بعض حكماء الروم يقول: إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون.

جعلت فداك، إن الله لم يعصم أحدا من الخطأ، ولم ينزه أحدًا من

الزلل، وإنما وهب الناس عقلا يحسن مرة ويسيء أخرى، ويخطيء حينا ويصيب حينا، وجعل من الناس على الناس رقباء يدلونهم على مواضع الخطأ ومواطن الزلل.

ولست بخير من عمر، وقد قال عمر للناس: من رأى منكم فِيَّ اعوجاجا فليقومه! فقال له قائلهم: لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا!

وقد لام اللائمون عثمان، فقبل اللوم، واعتذر من الخطأ، وتاب إلى الله من السيئات. فما أنت بخير من عمر، وما أنت بخير من عثمان وما أنت بخير من رسول الله ﷺ وقد رضي أن ينصف من نفسه.

فانصف من نفسك إذن، ولا تكلفها ما لا تطيق، وضعها حيث وضعها الله، وحيث وضعها أمير المؤمنين، واذكر أنك لم تكن أمس شيئا فأصبحت اليوم بفضل أمير المؤمنين شيئا مذكورا.

فاشكر لله نعمته عليك ولأمير المؤمنين يده عندك. وخير شكر لله أن تذيع في الناس العدل وتشيع فيهم الخير، وخير شكر لأمير المؤمنين أن تشعر الناس بحبه لهم ورفقه بهم. وأنهم عنده سواء.

وأنا أعلم – جعلت فداك – أن الحق مر، وأن النصح ثقيل، وأن الصدق بغيض إلى أصحاب السلطان. ولكنني أوثرك على نفسي وأصفيك خالص ودي، ولقد علمت ما علمت فكتبت ما كتبت، وأنا مرسل إليك هذا الكتاب فمرتحل إلى البصرة لأقيم فيها بعيدًا عن

بغداد. فَلَأَنْ أكون مغمورا فى البصرة أحب إليَّ من أن أكون مشـهورا معروفا فى بغداد.

ومضى الجاحـظ فى رسـالته تلك إلى محمد بن عبـد الملك الزيـات على ما تعود أن يمضي فيه من الاستطراد والتنقل بين ألوان الحديث، ولكن وقت القارئ أضيق من أن أتم له هذه الرسالة.

الوشاية والوشاة

هداك الله إلى الرشد، وجعلك إلى الرشد هاديا وللحق داعيا. وحماك الله من الغي، وجعلك من الغي حاميا وعن الأثم ناهيا. ودلك الله على الخير وجعلك على الخير دليلا وبالبر كفيلا، وعصمك الله من الشر، وجعلك من الشر عاصما وللفتنة حاسما. ووقاك الله سعى الساعين بالأذى، ودعاء الداعين إلى القطيعة، وإرجاف المرجفين بالكذب، وإسراف المسرفين فى الكيد، ومشى المشائين بالنميمة.

فقد كان يقال: إن صاحب القلب الذكى، والحكم الراجح، والبصيرة النافذة، خليق أن يحذر الساعين إليه بالناس وأن يقدر أنهم إنّ يسعوا إليه اليوم فقد يسعون به غدا، وأن يكيدوا لخصمه عنده والأيام مقبلة عليه، فقد يكيدون له عند خصمه والأيام مدبرة عنه. وكان يقال: أن الدهر قُلَّب، وأن الأيام لا تؤمن، وأن الزمان كلف بالغدر، موكل بالمساءة، يبسم ليعبس، ويعبس ليبسم! وكان يقال: إن الرجل الحذر خليقٌ ألا يؤتى من مأمنه، وسبيله إلى ذلك ألا يطمئن إلى الأيام ولا يستريح إلى الدهر، وأن يستقبل النعماء مقدرا أنها الغمرات ثم ينجلين!

وإذا كان الحزم للرجل اللبيب ألا يأمن الأيام ولا يطمئن إلى الدهر،

فأحـزم مـن ذلك ألا يأمـن الناس ولا يستريح إليهم.. فهم يسـعون إلى الرجـل ذى السـلطان والبـأس رَغَباً إليـه أو رَهَبا منه، يلتمسـون عنده الخـير، ويبتغون إليه الوسـيلة، ويسلكون إليه السبل حراصا على أن يخلـو لهم وجهه، ويصفو لهم وده، ويخلص لهـم ضميره، فتغمرهم نعمته، وتعدوهـم نقمتـه وهـم يعلمـون أن صاحب السلطان والبـأس لابد له مـن أن يُنعـم، فهم يحرصون علـى أن يسـتأثروا بأنعامه ولابـد له من أن ينتقـم، فهـم يجهـدون فى أن يصرفـوا نقمته عن أنفسـهم، وهم فى كل ذلـك يطلبون إلى صاحب السلطان والبأس أكثـر مما يطلبون إلى أنفسـهم، ويأخـذون منـه أكثر مما يعطونـه: يطلبون إليـه أن يخصهم بصفـو نفسه وصـدق وده وشـامل معروفـه، ولا يعطونـه من أنفسـهم إلا الكـدر والرنق، ولا يمنحونه من ودهـم إلا التكلف والريـاء، ولا يهدون إليـه من معروفهم إلا تربـص الدوائر به وانتهاز الفـرص فيه، وانتظار اليـوم الذى يتحولـون فيه عنه إلى من ينافسـه ويناوئه. فهم يعرضون قلوبهم ونفوسـهم وعقولهم وضمائرهـم للبيع، ويقبلون ما يعرض عليهم لهـا مـن ثمن. فـأى النـاس أرضاهم مالـوا إليـه، وأى النـاس قصر فى إرضائهم انحرفوا عنه وتألبوا عليه !

ثم هم بعد ذلك لا يحفظون ودا، ولا يرعون حرمة، ولا يذكرون جميلا. وانما يسـرع النسـيان إلى قلوبهم فيمحو منها كل ذكرى، ويلقى بينها وبين ما قدم إليهم من الخير والمعروف حجبا وأستارا. ثم هم بعد ذلك

لا يكتفون بالنسيان، ولا يقنعون بنكران الجميل وكفر النعمة، وإنما يضيفون شرا إلى شر، ونكرا إلى نكر، وجحودا إلى جحود. قد أقاموا حياتهم على الكذب، وأجروا سيرتهم على الرياء، وطووا ضمائرهم على النفاق. فهم لا يستطيعون أن يعيشوا بأنفسهم وإنما يستمدون حياتهم من المنعمين عليهم، المحسنين إليهم، ومن المغترين بهم، والمنخدعين لهم.. فهم يتملقون من أتيح له السلطان، يسعون إليه من كل سبيل، ويسلكون إليه كل طريق يرقون إليه على أعناق سادتهم الذين أحسنوا إليهم، وبروا بهم، وغمروهم بالمعروف، لا يتحرجون من غدر ولا يتأثمون من نكر، قد استحبوا المنافع العاجلة على المنافع الآجلة، وآثروا المكر على الإخلاص، والغدر على الوفاء. فخليق بصاحب السلطان أن يعرفهم حق معرفتهم، وأن يضعهم حيث وضعوا أنفسهم، وأن يخشى أن يمكروا به كما مكروا بمن كان من قبله، وأن يتخذوه وسيلة إلى التماس المنافع عند غيره كما اتخذوا من كان قبله وسيلة إلى التماس المنافع عنده!

وهذا الصنف من الناس - أيدك الله - رذل الطبع، موبوء القلب، مدخول الضمير، لا يحسب لشيء حسابا، ولا يرجو لأحد وقارا. لا يفرق بين خير وشر، ولا يميز عرفا من نكر، وإنما الخير ما انتهى به إلى ما يريد، والشر ما حال بينه وبين ما يريد. وإنما العرف ما أداه إلى غايته، والنكر ما باعد بينه وبين غايته. فليس للفضيلة عنده وزن،

وليس للخلق الكريم فى نفسه قدر. وهؤلاء الناس ينتهى بهم مراسِيَهم للكيد وإمعانهم فى المكر إلى أن يستعذبوا الأثم ويستحبوه، وإلى أن يكذبوا حبا فى الكذب، ويشوا إيثارا للوشاية. يجدون فى ذلك رضا لنفوسهم التى لا ترى إلا بالشر، ولا تنعم إلا بالوقيعة، ولا تستريح إلا إلى الإفساد بين الناس.

وقد أدب الله عز وجل رسوله ﷺ فأحسن تأديبه، ونهاه ونهى المسلمين معه عن طاعة كل حلاف مهين، هماز مشاء بنميم، مناع للخير معتد أثيم، عتل[1] بعد ذلك زنيم، فما أجدر المسلم الذى ينظر لأمر دينه كأنه يموت غدا، ولأمر دنياه كأنه يعيش أبدا، إن يتأدب بهذا الأدب الذى أدب الله به الأنبياء والصديقين والأبرار الصالحين.

والوشاية - جنبك الله شرها، وعصمك من نكرها، ورد عنك أذاها، وصرف إلى عدوك شباها - تكون على ضروب مختلفة وألوان مفترقة. فمنها ما امتحن به نابغة بنى ذبيان فى قصر النعمان، وذلك حيث يقول:

حلفتُ فلمْ أتركْ لنفسِكَ ريبةً ... وليسَ وراءَ اللهِ للمرءِ مَذهبُ

لئنْ كنتَ قدْ بلغتَ عنى وشايةً ... لمبلغكَ الوَاشِى أغش وأكذبُ

وحيث يقول:

أتانى أبيتَ اللعنِ أنكَ لمتنى
وتلكَ التى تصطكُّ منهَا المسامعُ

(١) العتل: الجاف الغليظ - المعجم الوسيط صـ ٥٨٢.

فبتُّ كأنــى سَـاورتنـى ضَئيلة

من الرقَطِ فى أنيابهَا السم نـاقعُ

فإنك كالليلِ الذِى هُو مُدركى

وإن خلتُ أن المنتأَى عنكَ واسعُ!

ومنها وشـاية بين الصديـق والصديق، وبين الأليـف والأليف تحول الصفـاء جفاء، والمودة عداء... ومنها الوشـاية بـين الحبيبين تلك التى قال فيها الشعراء فأجادوا وأحسنوا.

والقول فى شـكوى المحبين من وشاية الوشـاة وعذل العذال ورقابة الرقبـاء، خليـق أن يطـول وتلتـوى مذاهبـه. ولكنـى - أيـدك اللّه - لم أكتـب إليـك في ذلـك، ولم أرد أن أظهرك عليه. وإنما هو شـىء عرض أثنـاء الحديث فألممت به إلماما.. وأعود إلى ما بدأت به من تحذيرك سـعى الوشاة إليك وسعى الوشـاة بك، فأذكرك - وما أنت فى حـاجة إلى التذكرة - بما ترجم ابن المقفع فى كليلة ودمنة، وبما روى الرواة عن ملـوك العرب والعجـم، وبما قـالت الحكمـاء فى ذلـك من بارع الموعظة وروائـع الحكم. وأنـت - حفظك اللّه - حين تنظر فى بعض ذلك خليق أن تستقبل أمرك بالحزم، وأن تقيم سـيرتك على الحذر، وأن تسـوس أصحابـك بالتحفـظ، وألا تمضـى مـن أمـرك ما تمضـى، ولا تـدع منه ما تدع، حتى تروى فتطيل الروية، وتستبصر فتحسن الاستبصار.

ومـن حقـك على نفسـك، ومن حـق النـاس عليـك، أن تتهـم الذين

يسعون إليك، ويطيفون بك. فإن اتهام فريق من الناس والتثبت قبل الاستجابة إلى ما يدعونك إليه، خير لك وأسلم عاقبة من ظلم البرىء والإساءة إلى المحسن، والإحسان إلى المسىء والتجاوز عن المجرم. وقد أمر الله عز وجل نبيه ﷺ، وأصحابه رضى الله عنهم أن يتثبتوا إن جاءهم فاسق بنبأ، مخافة أن يصيبوا قوما بجهالة فيصبحوا على ما فعلوا نادمين! والله عزوجل قد وضع فى أعناق العلماء أن ينصحوا للحكام فيخلصوا فى النصيحة، وأن يعظوهم فيحسنوا الموعظة، وأن يذكروهم بآيات الله كلما تعرضوا لنسيانها أو هموا أن يتحولوا عنها. ومن أجل هذا كتبت إليك ناصحًا لك أمينا فى النصيحة، وواعظا لك مخلصا فى الموعظة، ومحذرا لك من الله الذى حذر الناس نفسه، ومذكرا لك بآيات الله الذى طلب إليهم أن يتذكروا آياته.

وما أجدر الذين يسوسون الناس ويدبرون أمورهم ويقضون فى أنفسهم وأموالهم، أن يضعوا أمامهم صحيفة يلقون عليها نظرهم بين حين وحين، وقد كتبت فيها هاتان الآيتان الكريمتان من سورة الحجرات (الآيات ١١ - ١٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

ذلك أحرى أن يعصمهم من المظالم وأن ينزههم عن الكيد، ويجنبهم كثرا من الظن، ويحملهم على ألا يأخذوا الناس بالشبهات.

رسالة القصد والغرور

يسرك الله للخير، ويسر الخير لك، وصرفك الله عن الشر، وصرف الشر عنك، ودلك الله على الحق، ودل الحق عليك، وساقك الله إلى الصواب، وساق الصواب إليك، وأشاع الله في قلبك الغبطة، وأسبغ على نفسك البهجة، وأنزل على ضميرك السكينة، ونقى دخيلتك من الموجدة والضغينة، وجعل ما ظهر من أمرك بشرا ويمنا، وما خفي من سرك دعة وأمنا، ووطأ كنفك للصديق المقارب، ومهد عفوك للعدو المجانب، ورفع مكانك عن كيد الكائدين وحسد الحاسدين، وخفض جناحك للائذين بك واللاجئين إليك، وثبتك على ما ركب في طبعك من إعطاء المحروم، وإغاثة الملهوف، وإعانة المحتاج، وتعزية الملتاع، والأخذ بيد الضعيف، والتجاوز عن إساءة المسيء، والإعراض عن جهل الجاهلين.

بهذا كله أدعو لك حين ألقاك وحين أنأى عنك، وبهذا كله أدعو لنفسي حين أخلص لها خاليا إليها، وحين أشغل عنها نافرًا منها، فالله يشهد ما أحببت لنفسي شيئا إلا أحببت لك مثله أو خيرًا منه، وما كرهت لنفسي أو من نفسي شيئا إلا تمنيت أن يعصمك الله منه،وينزهك عنه، ويجنبك التورط فيه. فأنت رفيق الصبا وصديق

الشباب، وأنت شقيق نفسي وأليف قلبي، والشريك في النعمة حين تُظل، والحليف على النائبة حين تنوب، والمعين على الخطب حين يدلهم، والظهير على الأيام حين تحدث فيها الأحداث وتتعقد فيها المشكلات. فما نصحت لك قط ولا أشرت عليك ولا رفقت بك إلا رأيتني لها ناصحا، وعليها مشيرا، وبها رفيقا.

وما أعلم أنك احتجت قط إلى نصح الصديق ومشورة الخليل كما تحتاج إليهما الآن حين ارتفعت منزلتك عند أصحاب الشأن، وألقى إليك الخطير من أزمة الحكم، فطمع فيك الطامعون، وأشفق منك المشفقون، وأنعقدت بك الآمال، ولاذت بك الأماني، وأصبحت من وفور النعمة وبسطة الجاه بحيث لا تستقبل النهار ولا تستقبل الليل ولا تعبر ساعة من ساعاتهما أو لحظة من لحظاتهما إلا فكر فيك مفكر يريد أن يستظل بجناح من نعمتك أو يتقي طائفا من نقمتك، فأنت المرجو المخوف، وأنت المحبب المبغض، وأنت المرموق الموموق، وأنت المغبوط المحسود. وإذا بلغ الإنسان مثل ما بلغت من ارتفاع المنزلة وعلو المكانة وانبساط السلطان وامتداد القوة كان خليقا أن ينأى بنفسه عن الغرور والتيه، ويبرئها من الصلف والكبرياء، ويحميها من الاندفاع في الثقة والاعتداد بالحول والطول والاستغناء بالثراء والبأس، ويذكر أنه قد قوى بعد ضعف، وأثرى بعد فقر، واستغنى بعد احتياج، وأن ضمائر الأيام تحفظ للناس من أسرار الغيب ما يحبون

ومـا يكرهـون، وتدخـر لهم مـن الأحداث ما يعرفـون وما ينكـرون. فمن أتيحـت لـه القوة قـد يقدر له الضعف، ومن مكن لـه في الأرض قد تنبو بـه الدار، ومن ابتسـمت له الأيام قد يعبس لـه الدهر. النعمة وديعة في أيدي أصحابها قد يطلبها من استودعهم إياها، والقوة عارية في أيدي الأقويـاء قـد تؤخـذ منهم لـترد علـى الضعفـاء. واللّٰه عز وجـل يقول في سورة آل عمـران - الآيـة ١٤٠: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾

وقد قال الشاعر القديم:

فيـوم علينـا، ويـوم لنـا ويـوم نسـاء، ويـوم نسـر

فأحـذرك أول ما أحذرك أيها الأخ الصديق والخليل الشـفيق، الاعتداد بالنفس، والاغترار بالحول والطول، والانخداع بابتسامات الدهر، فإنها قد تصدقك اليوم لتكذبك غدا. فاحذر نفسك أول ما تحذر، وأشفق عليها منها قبل أن تشـفق عليها من الناس، واذكر قول اللّٰه عز وجل في قصة يوسف عليـه السـلام الآيـة ٥٣: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾

فلا تنفذ لنفسـك أمـرًا تتلقاه منها حتى تتدبـره وتفكر فيه فتطيل التفكـير. ومهما يواتـك الحظ فاذكر حالك قبـل أن يواتيك، وقدر أنك قد تعود إلى مثل ما كنت فيه. واذكر رأيك في أصحاب الرأي قبل أن تكون منهم، ونقدك لهم وحكمك عليهم قبل أن ترقى إلى مكانك بينهم. واعلم أن الناس يقولون فيك مثل ما كنت تقول فيهم، ويحكمون عليك بمثـل مـا كنت تحكم عليهم. واذكـر أول ما تذكر أن لـك ضميرا يرضى

ويسخط، ويعرف وينكر، ويحمد ويذم، وأن أعباء الحكم قد تشغلك عنه أو تشغله عنك، ما امتدت لك أسباب القوة، ولكنك ستفرغ له كما أنه سيفرغ لك، ذات يوم أو ذات ليل، فاحرص على ألا تسمع منه إلا خيرًا.

وأنت بعد ذلك محتاج إلى نصح الصديق ومعونة الخليل فيما أحدث الحكم بينك وبين الناس من صلات، فأنت تدبر أمورهم وترعى مرافقهم، تسوسهم باللين حينا وتسوسهم بالشدة أحيانا. فأنت تُطمع وتخيف، وأنت تشيع الرعب وتشيع الرهب، وأنت تمد أسباب الرجاء وترسل إلى القلوب صواعق اليأس. فالناس بين مبتغ إليك الوسيلة ومتربص بك الدائرة، ومنتهز فيك الفرصة. كلهم يظهر لك المودة، وأكثرهم يضمر الموجدة عليك، ويطوى قلبك لك على شر ما تطوى عليه القلوب.

وأخوف ما أخاف عليك من الناس: سعيهم عندك بالنميمة، ومشيهم إليك بالوقيعة، وابتغاؤهم رضاك بالوشاية، فالناس يبتغون إلى الحاكم كل وسيلة، ويتقربون إليه من كل سبيل. يتنافسون فيما عنده، ويغريهم ذلك بأن يكيد بعضهم لبعض، ويمكر بعضهم ببعض، ويتكذب بعضهم على بعض، كلهم يريد أن ينال من الحكومة أكثر مما ينال غيره من النظراء، وهم من أجل ذلك فى هم مقيم وتحاسد متصل، وتباغض ملح، يسعون إلى آمالهم بما يستقيم من الطرق

ومـا يعـوج، وبمـا يبـاح مـن السـيرة وما يحظر، وبما يحسـن مـن القول والعمـل وما يقبـح، يتبادلون المسـاءة فيمـا بينهم ولكنهـم يختصونك بشـر مـا يتبادلـون مـن النكـر والسـوء، ويفسـدون قلبـك علـى النـاس فيفسـدون قلوب النـاس عليك، ويسـيئون رأيك فيهم فيسـيئون رأيهم فيك. ثم ينتهون آخر الأمر إلى أن يفسـدوا عليك أمرك، ويسـيئوا رأيك في نفسـك، ويباعدوا بينـك وبين ضميرك، وينغصوا عليـك راحة الليل ونشاط النهار.

وإذا وجـب عليـك أن تحـذر نفسـك وأن تحذر الناس فقد يسـتبين لـك أن الحكـم نقمـة لا نعمـة، ومحنـة تبتلـى بهـا النفـوس، وتفـتن بهـا القلـوب، وتمحـص بها الضمائـر، فهو عنـاء لا راحة، وهو شـقاء لا سـعادة، وهـو قلـق لا هـدوء وهو خـوف لا أمـن. وأذكـر - أصلحك الله - أيام كنا نلتقي فنذكر فلانا وفلانا من الحكام الذين سـبقوك، نعيبهـم كثيرا، ونثنـى عليهم قليلا، ونرثى لهم دائمـا، ونتمنى للصديق منهـم أن يجلـى الله عنه الغمرة، ويفرج عنـه الكربة، ويحط عنه أعباء الحكم وأوزاره، ويرده إلى الحياة الحرة السمحة التى لا يحمل الإنسان فيها إلا أوزار نفسـه، والتى لا يثقل الإنسان نفسه فيها بأوزار النـاس، وما أكثر أوزار النـاس!

ولقد تبسم راضيا أو ساخطا حين تعلم أنى أكتب إليك هذه الرسالة، وفى نفسـى من الحب لك والرفق بك والاشفاق عليك، ما يحملنى على

أن أسأل الله لك العافية. وأتمنى عليه أن يضع عنك إصر الحكم وأغلاله، وأن يردك إِلَيَّ من هذه المحنة سالما موفورا، وقانعا من الغنيمة بالإياب. فخير غنيمة للحاكمين أن يخرجوا من الحكم أتقياء كما كانوا قبل أن يدخلوا فيه. لم يغنموا منه إلا سلامة الإياب!

رسالة إلى ؟

لست أدرى كيف أدعوك ! فقد كنت فيما مضى من الأيام أدعوك بالأخ العزيز والصديق الكريم، وأنا أخشى أن أسوءك وأن أسوء الحق إن دعوتك بهاتين الصفتين: إحداهما أو كلتيهما.

أخشى أن أسوءك بإثارة الحزن والآسى فى نفسك وبإثارة الندم فيها أيضا، فأنت تعلم أنك لم تبق لى أخا عزيزا لأنك ألغيت هذا الإخاء، ولا صديقا كريما لأنك قطعت أسباب هذه الصداقة. وقد يسوءك تذكيرك بما مضى، وقد يحزنك ردك إلى ما سلف، وقد يشق على نفسك أن تتبين أنه لا سبيل إلى استدراك ما فات، ولا إلى استئناف ما فرط، فالأمر ما أرسل القدماء مثلهم المعروف: « سبق السيف العذل ».

وقد يثير الندم فى نفسك أن تصدقك الذكرى بعد أن بعد العهد، وسكت الغضب، ورضيت الأطماع، وتغيرت الظروف، فتنبئك بأنك قد تجنيت فى غير موضع للتجنى، وتكلفت القطيعة فى غير مقتض لتكلفها، وأقدمت عليها حين كان كل شىء يدعوك إلى أن تحجم عنها وترفع نفسك عن إثمها..!

نعم لست أدرى كيف أدعوك ! فلست أريد أن أسوءك، ولست أريد أن أسوء الحق، فالحق يعلم أنك كنت لى أخا عزيزا وصديقا كريما،

ثم ألغيت الإخاء إلغاء ومحوت الصداقة محوا. وما أحب أن أدعوك سيدى كما تعود الناس أن يدعوا من ليس بينهم وبينه صلة من مودة أو إخاء، فإني أشق على نفسي وأكلفها أكثر مما تطيق إن دعوتك بهذا الاسم، وقد أشق على شيء هو أكرم على من نفسي وإن لم يكن عليك كريما، وهو الذكرى.

ولعلك لم تنس بعد ما كنا نتحدث به أيام الصفاء من أننا قد بلغنا السن التى يحرص الناس فيها على الذكرى كما يحرصون على أنفس الكنوز، لأنها خير من كل ما بقي لهم، أو هي خير ما بقي لهم من حياة قد مضى أكثرها ولم يبق إلا أقلها، وليس إلى استئنافها من سبيل.

وكنا نقول فى أيام الصفاء تلك: إنا قد بلغنا السن التى يحتفظ فيها الرجل الكريم بشيئين أشد الاحتفاظ ويحرص عليهما أعظم الحرص، ويضن بهما أكثر مما يضن البخيل بماله، وهما: **الذكرى** التى تستبقى له حياته أو ما يمكن استبقاؤه من هذه الحياة، **والصداقة** التى تصل بينه وبين الدنيا حين تنقطع الأسباب بينه وبين الدنيا كلما مرت ساعة من ليل أو ساعة من نهار. وكنا نتواصى فى أيام الصفاء تلك بأن يخلو كل واحد منا إلى نفسه ما استطاع، فيستحضر الماضى كله ويعصره عصرا ليستخلص منه ما يستطيع أن يستخلصه من الذكرى وليسجله فى كتاب حتى لا تعبث به الأحداث، وحتى لا تذهب به الأيام، وحتى لا تمحوه هذه الشيخوخة التى تسرع إلينا أو نسرع إليها،

والتى تفنى كل شىء فينا قليلا قليلا، فكنا نريد أن نستخلص الذكرى من الأحداث والأيام والشيخوخة وتكرهها على البقاء لأننا نجد العزاء كل العزاء فى الرجوع إليها والاستماع لما تقص علينا من أحاديث أنفسنا، [illegible] نستطيع أن نعمل

وكنت أحبك أشد الحب، وأوثرك على الناس جميعا، وأوثرك على نفسى قبل أن أوثرك على الناس. وكُنْتَ تحبنى أشد الحب، وتؤثرنى على الناس جميعا، وتؤثرنى على نفسك قبل أن تؤثرنى على الناس.

وكان كل واحد منا حريصا من أجل ذلك على أن يعرف من أمر صاحبه كل شىء.

كنت أنت قد بلغت الثلاثين، وكان بينى وبينها أعوام قليلة حين التقينا وحين اصطفى كل واحد منا صاحبه على غيره من اللدات والأتراب. ومنذ ذلك الوقت لم يخف على أحدنا من أمر صاحبه شىء. ولكنَّ كلا منا كان يجهل صِبَا صاحبه وشبابه، وكان يحرص على أن يعرف صبا صاحبه وشبابه. وكنا نتواصى فى أوقات الصفاء تلك بأن نستقصى فنحسن الاستقصاء، وبأن نحصى فنتقن الإحصاء، وبأن نسأل الأهل عما كان من أمر طفولتنا حتى لا يفوت أحدنا من أمر صاحبه قليل أو كثير. كان كل واحد منا حريصا على أن يعمر قلبه بصورة من صاحبه كاملة إلى أقصى ما يتاح للأشياء

الإنسانية من الكمال.

أتذكر هذا كله، أم نسيته كما نسيت كثيرا غيره من الأشياء؟ أما أنا فأذكره كما أذكر نفسى، وأنعم به كما أنعم بنفسى، وأشقى به [illegible] ينبوعين يفيض أحدهما بالسعادة، ويفيض ثانيهما بالشقاء.

لم أنس من هذا كله شيئا، ولن أنسى من هذا كله شيئا، وسأنعم بهذا كله فأجد شقاء فى هذا النعيم لأنه لا يزداد ولا ينمو ولا يتجدد، وسأشقى بهذا كله فأجد نعيما فى هذا الشقاء لأنه يستبقى لى سعادة قد بلوتها فحمدت بلاءها ومازلت أذوقها وأحرص على استبقاء هذا المذاق.

كل هذا أقوله لأنى لا أدرى كيف أدعوك... فلست أخى العزيز، ولست صديقى الكريم، لأنك لا تريد أن تكون هذا ولا ذاك، ولست سيدى لأنى لا أريد أن أدعوك بهذا اللفظ السخيف الفارغ الذى لا يدل على شىء. وما حاجتى إلى أن أدعوك! وما حاجتك إلى هذا الدعاء! وما يمنعنى أن أكتب إليك دون أن أبدأ رسالتى بما تعود الناس أن يبدءوا به رسائلهم من هذه الألفاظ - إنك لتفهم عنى وإن لم أدعك، وإنى لأوجه إليك القول وإن لم تسمع دعائى. وما حاجتى إلى أن أدعوك وأنا لن أرسل إليك هذا الكتاب فى بيتك فى القاهرة، أو فى مصيفك فى الاسكندرية، أو غيرها من مصايف مصر، فلست أعرف أين تصطاف،

وقد مضى زمن كنت أسأل فيه عنك في أي فصل من فصول السنة، وفي أي شهر من شهورها، وفي أي يوم من أيام الشهر، وفي أي ساعة من ساعات اليوم، فأعرف أين تكون... وأدل سائلي على مكانك من دارك، أو مكتبك، أو ناديك، أو ما شئت من هذه الأماكن التي كنت تضطرب بينها وتختلف إليها. فأما الآن فأنا أجهل من أمرك كل شيء إلا هذه الأنباء التي أقرؤها في هذه الصحيفة أو تلك.

فأنت رجل تتحدث عنه الصحف فتكثر الحديث، وتروي أنباءه فتحسن رواية الأنباء. لا أعرف من أمرك إلا ما يعرفه كل قارئ للصحف، ولا ألقاك إلا حين تفرض علينا ظروف الحياة أن نلتقي في هذا الحفل أو ذاك. وقد يقبل أحدنا على صاحبه مكرها فيهدي إليه تحية فاترة ملؤها الاستحياء أو الاستخذاء، وفيها كثير من التعجل، وفيها كثير من الرغبة في أن يطرأ طارئ أو يقبل مقبل أو يكون شيء من هذه الأشياء الكثيرة التي يفترق لها الناس بعد اجتماع، ويشغل بها بعض الناس عن بعض في هذه المواطن التي يقوم الأمر كله فيها على التكلف والتجمل والرياء. لا أعرف من أمرك إلا ما يعرف الناس جميعا، ولا ألقاك إلا كما يلقي بعض الناس بعضا في هذه الاجتماعات السخيفة البغيضة التي تسوء أكثر مما تسر وتغيظ أكثر مما ترضي، والتي لا أشهدها إلا رجعت منها بالسخط على نفسي وعلى الناس.

أتذكر؟! لقد كنا نتحدث فى ذلك فنطيل الحديث، نضحك منه كثيرا، ونَجِنُّ له كثيرا، ونسخر منه دائما.

لا أعرف من أمرك إلا ما يعرف الناس جميعا، ولا ألقاك إلا فى هذا الفصل الذي نلتقي الناس فيه حول مائدة من موائد الشاي أو موائد الطعام. لا أسمع صوتك فى التليفون قبل أن يرتفع الضحى، ولا أسمع صوتك فى التليفون حين يتقدم الليل، ولا تسعدنى زيارتك حين أقيم، ولا تؤنسنى رسائلك حين أغترب. ومن أجل ذلك أكتب إليك دون أن أضع عنوانك على هذا الكتاب، ودون أن أسلم هذا الكتاب إلى البريد، لأنا فقدنا عادة المكاتبة كما فقدنا عادة التزاور، وكما فقدنا عادة الحديث بالتليفون. وأنا مع ذلك أكتب إليك وأسلم كتابى إلى المجلة لأنى واثق بأنه سيصل إليك دون أن تعرف لمن أكتب أو إلى مَنْ أسوق الحديث، ودون أن يعرف أحد من قرائها لمن أكتب وإلى من أسوق الحديث؟ إلا أنت، فستعرف حق المعرفة لمن أكتب وإلى من أسوق الحديث.

ستقرأ هذا الكتاب ما فى ذلك شك، لأنك تقرأ كل ما أكتب كما أقرأ أنا كل ما تكتب، فأنت مريض بى كما أنى مريض بك، لا نلتقى ولا نتزاور ولا نتحدث، ولكننا نتصل على رغم هذا كله اتصالا يشوبه الرضا حينا، ويشوبه السخط حينا، ويشوبه الحزن دائما.

ستقرأ هذا الكتاب وستعلم أنه موجه إليك، وسترى نفسك فيه فتنكرها أشد الإنكار وتود لو تجهلها ولو تستطيع أن تفلت منها،

وستحاول ذلك ما وسعتك المحاولة، ولكنك لن تبلغ من ذلك شيئا.

فهناك شيئان لا يستطيع الإنسان أن يفلت منهما مهما يجهد ومهما يحاول... لا يستطيع الإنسان أن يفلت من نفسه، ولا يستطيع الإنسان أن يفلت من ملك ربه كما يقول أبو العلاء.

سترى نفسك في هذا الكتاب، وستنكرها أشد الإنكار، وسيلذع الندم قلبك على ما أضعت من حق، وما بددت من مودة كان يجب عليك أن تحتفظ بها، ولكنك ستتكلف النسيان، وستنسى أحيانا، وسيعود إليك الندم فيعذب قلبك عذابا شديدا. إنك تود لو تستطيع أن تصل ما انقطع من الأسباب وتجمع ما تفرق من الشمل، ولكنك ستجد بينك وبين هذا أمدا بعيدا لا سبيل إلى قطعه، وهوة سحيقة لا سبيل إلى عبورها. فالدواعي التي دفعتك إلى القطيعة مازالت قائمة لم تمحها الظروف بعد، وستمحوها الظروف من غير شك غدا أو بعد غد. ولكنك حينئذ ستستحي من التفكير في وصل ما قطعت من سبب، وجمع ما فرقت من شمل، وستؤثر الموت على العودة إلى صديق قطعت أسباب وده طلبا للمتعة، وتهالكا على أعراض الحياة، ورغبة في الوصول إلى ما كانت نفسك تتقطع عليه حسرات.

لقد كنت تجهل نفسك جهلا شديدا، وما أرى إلا أنك تجهل نفسك جهلا شديدًا وإن كنت قد بلغت سن « الشيوخ ». وليس عليك من ذلك بأس. فالحكمة التي كتبت على معبد دلف لم تكتب عبثا.. طلبت إلى

الإنسان أن يعرف نفسه بنفسه، وقد اجتهد سقراط في أن يستجيب لهذه الحكمة، وفي أن يعرف نفسه، فلم يبلغ ما أراد. وما أحسبك أذكى قلبا، ولا أمضى عزما، ولا أشد جلدا من سقراط.

لقد كنت تجهل نفسك. كنت ترى نفسك رجلا خيرا مؤثرا، فكشفت لك الأيام عن رجل قد يكون خيرًا ولكنه ليس من الإيثار في شيء، وإنما هو الأثرة في كل شيء.

كنت ترى نفسك زاهدا في متاع الدنيا وأعراض الحياة، فكشفت لك الأيام عن رجل قد يرتفع بنفسه عن المتاع الدنيء والأعراض المخزية ولكنه يتتبع الثراء ما استطاع إليه سبيلا، والجاه ما وجد إليه مسلكا، وغرور المنصب ما أتيح له الغرور.. يؤثر هذا كله على كل شيء حتى على الوفاء، وعلى كل إنسان حتى على الأخ العزيز والصديق الكريم. إنك « أديب » ولكنك تحب الأدب السهل وتكره الأدب العسير. ولم يكن شيء يغيظك في أيام الصفاء تلك، كما كان يغيظك تحدثي إليك عن بعض آيات الأدب الرفيع. كنت تراني أعيش في السحاب، وكنت تطلب إلى أن أهبط إلى الأرض، وكنت تشكو إلى ما أشق به عليك من هذه المعاني التي لم تألفها في شعر شعرائنا ونثر كتابنا ومن هذه الآمال التي لم نألفها في حياتنا المتواضعة الراكدة.

فدعني أشق عليك مرة أخرى ببعض هذا الأدب الرفيع الذي كنت تضيق به أشد الضيق. وعلم الله ما كتبت إليك لأشق عليك، ولكن

هذا الأدب الرفيع قد يظهر الناس على نفوسهم أحيانا، وأنا أحب أن أظهرك على بعض نفسك لعلك تتذكر أو تخشى، ولعلك تستقبل أيامك بغير ما تعودت أن تستقبلها به إلى الآن. إنى أقرأ فى قصة تمثيلية لشاعر يونانى لست فى حاجة إلى أن أسميه، لأن اسمه لن يدلك على شيء. أقرأ فى هذه القصة اليونانية حديث أم إلى ابنها، وقد لقيته بعد نفى طويل.. فهى تسأله عن حياته فى المنفى وتقول له فيما تقول: ألم يعنك أصدقاء أبيك وهؤلاء الذين نزلت عليهم ضيفا ؟ فيجيبها: يجب أن يكون الإنسان سعيدا ليجد مودة الأصدقاء، فإن الأصدقاء لا يغنون عن الصديق البائس شيئا.

وأقرأ فى قصة فرنسية لكاتب لا أسميه، لأن اسمه لن يدلك على شيء، إن الصداقة توقف الإنسان عن أن يتقدم إلى أمام وقد ترجع به أحيانا إلى وراء. فمن الخير ألا يستبقى الإنسان صداقة تمنعه من الرقى إلى ما يطمح إلى تحقيقه من الآمال.

أرأيت لِمَ يهجر الصديق ؟ أرأيت لِمَ يعرض الخليل عن ود الخليل ؟ أرأيت لِمَ قال الشاعر العربى القديم :

غاضَ الوفاءُ وفاضَ الغدرُ وانفرجتْ
مسافةُ الخُلفِ بينَ القولِ والعملِ

عد الآن إلى نفسك وسلها: متى رثت أسباب الود بينك وبينى ومتى انقطعت هذه الأسباب ؟.. فستفهم كل شيء، وستعرف من

أمر نفسك ما خفي عليك. والله يداول الأيام بين الناس، والأرض تدور والظروف تتغير، وسترى قوما يألفونك الآن ويتهالكون عليك كما يتهالك الذباب على الطعام الشهي. ستراهم حين يتم الزمن دورة من دوراته، وحين يبدل الله من قوم لقوم، وحين تذهب ظروف وتأتي مكانها ظروف أخرى، وقد انصرفوا عنك كما انصرفت أنت عن بعض الناس، وتنكروا لك كما تنكرت أنت لبعض الناس. فإذا مضت الأيام استحيوا منك كما تستحي أنت الآن من بعض الناس.

صدقني إني لا أعرف الرجل الكريم حقا إلا بخصلة واحدة، هي أن يتجنب فيما بينه وبين الناس من صلة، ما من شأنه أن يخزيه أمام نفسه.. فالرجل الذي لا يخزى أمام نفسه خليق ألا يخزى أمام الناس، والرجل الذي يكره أن يستحي أمام ضميره حين يجن الليل ويسكن من حوله كل شيء، خليق أن يتجنب ما يضطره إلى أن يستحي من الناس.

صدقني أن نفوس الناس معادن، ومن المعادن ما يعلوه الصدأ، ومنها ما لا يجد الصدأ إليه سبيلا. وكم كنت أتمنى أن تكون نفسك أصفى وأنقى وأقوم وأمتن من أن يعلوها الصدأ أو تعبث بها الخطوب. ولكن لابد مما ليس منه بد، ولا سبيل إلى إصلاح ما أفسدت الأيام!

أفهمت الآن لمَ لَمْ أرسل كتابي إليك؟.. أفهمت الآن لمَ لَمْ أعرف كيف أبدأ كتابي إليك؟ وهناك شيء آخر أحب أن تفهمه فقد يكون

فى فهمك إياه بعض هذا العزاء الرخيص: لماذا كتبت هذا الكتاب، وقد انقطعت الأسباب بينك وبينى، ولماذا نشرت هذا الكتاب فى المجلة ؟! لسبب يسير جدا وهو أن أمثالك فى الناس كثيرون بل أكثر [illegible] الوحيد الذى يرى نفسه فيها.

قلب مغلق

لا تغضب، فلم أجد إلى أغضابك، ولو قد أردت إليه ما استطعته ولا قدرت عليه، فأنت رجل متئد رزين، شديد الوقار، عظيم الحلم. لا يشبه حلمك بالبرد كما كان يصنع أبو تمام، لأنه ليس حلما حضريا مترفا. وإنما يشبه بثبات الصخر واستقرار الجبال كما كان يصنع الفرزدق، لا لأنه حلم بدوى ساذج كحلم قيس بن عاصم أو الاحنف بن قيس أو معاوية بن أبى سفيان، بل لأنه حلم يأتى من هذا الحجاب الصفيق الذى ضرب بين قلبك وبين الأحداث والخطوب. فأنت رجل لا تبلغك الأحداث، ولا تصل إليك الخطوب. قد ألقيت بينك وبين حياة الناس أستار كثاف، وعشت أنت من دون هذه الاستار مشغولا بنفسك عن كل شىء، ومنصرفا إلى نفسك عن كل إنسان. يستطيع الناس من حولك أن يرضوا ويسخطوا، وأن يثوروا ويهدءوا، وأن يأمنوا ويخافوا، وأن يتجهوا إليك ليشركوك فى رضائهم وسخطهم، وليقسموا لك حظا من هدوئهم وثورتهم، ولينعموا معك بالأمن إن أتيح لهم الأمن، وليستعينوا بك على الخوف أن سلط عليهم الخوف، ولكنهم لن يبلغوا من ذلك شيئا، لأنهم لن يستطيعوا أن يتجاوزوا ما ألقى بينك وبينهم من حجب، ولا ما أسدل بينك وبينهم من أستار.

إنما أنت رجل محصن، لا يبلغه العدو ولا يصل إليه الصديق، وأكاد أعتقد أنه ليس لك عدو ولا صديق. شغلت بنفسك حتى يئس الناس منك، وأعرض الناس عنك، فلم يطمع فيك منهم طامع، ولو قد [illegible] لما نالك منه شيء. والناس مع ذلك لا يرون شيئًا من هذا الحصن المؤشب الذي حصنت فيه نفسك، ولا من هذه الحجب الصفاق التي قامت بينك وبينهم، ولا من هذه الأستار الكثاف التي ألقيت عليك من دونهم. وإنما هم يرونك مصبحا وممسيا، ويلقونك غاديا ورائحا، يقولون لك فتسمع منهم، وتقول لهم فيسمعون منك، يجاذبونك هذه الأطراف الرثة السخيفة التي يتجاذبها الناس حين يحيون في البيئة الواحدة، ويخضعون للنظام الواحد، ويشاركون في هذا العيش الذي يعيشه المتحضرون، فأنت قريب منهم كأشد ما يكون القرب، تمد إليهم يدك ويمدون إليك أيديهم، ترد عليهم تحيتهم ويردون عليك تحيتك. وأنت بعيد عنهم كأقصى ما يكون البعد، تلقاهم وكأنما تحلم بلقائهم، ويلقونك وكأنما يلقون ظلاً لك مستعارا. بينك وبينهم أسباب مصنوعة وصلات متكلفة لا تبلغ النفس ولا تتصل بالقلب، فهي لا تثير في عقلك تفكيرا ولا تثير في قلبك شعورا، لمكان هذا الحصن المؤشب الذي لا يرى، ولمكان هذه الأستار والحجب الكثاف التي لا تحس. وما أدري، أحاولت قط أن تعرف أم حاولوا هم قط

أن يعرفوا طبيعة هذا الحصن المؤشب، ومادة هذه الحجب والأستار الكثاف. ولكن أنا قد حاولت، وكتبت لمحاولتي النجاح والتوفيق. وأنا أكتب إليك لأعلمك من أمر هذا الحصن ما لم تعلم، وأعرفك من أمر هذه الحجب والأستار ما لم تعرف، وما يعنيني أن تنتفع بهذا العلم أو لا تنتفع، وأن تستفيد من هذه المعرفة أو لا تستفيد. فلو قد أردت أن أنفعك أو أفيدك لخصصتك بهذا الكتاب من دون الناس، ولكنك ترى أني لم أرسله إليك، وإنما نشرته في المجلة لتقرأه أنت أو لا تقرأه، وليقرأه غيرك من الناس على كل حال. فمن حق الناس أن يعلموا أن بينك وبينهم حصنا مؤشبا وحجبا صفاقا وأستارا كثافا، وأن ينظروا لأنفسهم، أيطمعون فيك وينتظرون منك الخير، فيجب عليهم أن يحتالوا في اقتحام هذا الحصن، وإزالة هذه الحجب، وتمزيق هذه الاستار، أم يستيئسون منك فيجب عليهم أن يخلوا بينك وبين هذه العزلة التي اخترتها أو اختارتك، وأن يمضوا في طريقهم ويسعوا إلى غايتهم لا يشغلون أنفسهم بك، كما أنك لا تشغل نفسك بهم.

* * *

فما ينبغي أن يظل الناس من أمرك في هذه الحيرة المتصلة، يرونك واحدا منهم ويقدرون أنك متضامن معهم في حمل أثقال الحياة والنهوض بأعبائها، حتى إذا جد الجد، افتقدوك فلم يجدوك، وإذا أنت سراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا، ووجد

عنده الحزن واليأس وخيبة الأمل وكذب الرجاء. إنهم ينظرون فيرون غِنى موفورا، ونعمة واسعة، وعيشا لينا، وثراء عريضا، وإنهم يسمعون فيقع فى آذانهم صوت عذب ممتلىء تشيع فيه القوة وتفيض منه الحرارة، ويحمل إلى قلوبهم ألفاظا حلوة رائقة شائقة، فيها كثير من أمل، وفيها كثير من وعد، وفيها إحياء للطمع الميت، وإيقاظ للطموح النائم، وإشعار بأن الناس قد خلقوا للتعاون والتضامن، وليظاهر بعضهم بعضا حين تنوب النوائب، وليشد بعضهم أزر بعض حين تدلهم الخطوب. ولكنهم يستقبلون من أمورهم ما يظلم وما يشرق، وينهضون من أعمالهم بما يخف وما يثقل، ويلتمسونك ليستعينوا بك على تبديد الظلمة، ويبتهجوا معك بجمال النور المشرق، ويستمتعوا معك بحمل الأعباء الخفاف فى فرح ومرح ونشاط، ويجهدوا معك بحمل الأعباء الثقال فى صبر وأيد، وحزم وثبات. يلتمسونك فلا يجدونك، أو هم يجدونك حين تشرق النعماء، ويفقدونك حين تظلم البأساء. أنت شريكهم فى العيش الرضى والحياة المقبلة، وأنت أبعد الناس عنهم حين يغلظ العيش، ويعظم البأس، وتدبر الحياة. تسرع إليهم حين ينعمون لتشارك فى نعيمهم على أن ذلك حق لك لا ينبغى لأحد أن يردك عنه أو يجادلك فيه. ولعلك تأخذ من هذا النعيم - إن أتيح - بحظ أعظم من حظوظهم، ولعلك تنظر إليهم وهم يأخذون بحظوظهم المتواضعة الضئيلة، ساخطا عليهم ضيقا بهم، مزدريا لهم، نرى أنهم

واعلون يشاركون فيما لا حق لهم أن يشاركوا فيه، ويأخذون مما لا حق لهم أن يأخذوا منه، ولعلك أن تردهم عن هذا النعيم إن استطعت لهم ردا، وأن تذودهم عن هذا الصفو إن استطعت لهم ذيادا. وأنت على كل حال تنظر إليهم شزرا، وتقيم معهم على مضض، تستأثر من دونهم بالكثير، وتحسدهم على ما يتاح لهم من القليل. فإذا أدبرت الدنيا وأظلمت الحياة، واكتأب الأمل، وجد الجد، والتمس الناس المعين على ما يلم بهم من شقاء وبأس، آويت إلى حصنك هذا المؤشب، وألقيت من دونك هذه الحجب الصفاق وأسدلت بينك وبين الناس من الاستار الكثاف، ونعمت بعزلتك نعمة هادئة مطمئنة، لا ينغصها منظر البؤس ولا يكدرها صوت الشكاة، ولا يشوبها تفكير في البائسين، سواء منهم من احتمل البؤس صامتا صابرا جلدا، ومن احتمل البؤس صائحا صاخبا شاكيا إلى الله وإلى الناس.

ما طبيعة هذا الحصن المؤشب، وما مادة هذه الحجب والأستار وكيف السبيل إلى أن يخرجك الناس من عزلتك هذه الراضية لتسعد معهم إذا سعدوا، وتشقى معهم إذا شقوا، وتشاركهم في استقبال الحياة حين تشرق وحين تظلم ؟

هذه هي المسألة التي حاولت أن أجد لها حلا، وأتيح لمحاولتي هذه شيء من التوفيق.

إن حصنك هذا المؤشب يا سيدي، ليس إلا قلبك المقفل الذي

لا ينفذ إليه شعور بالتضامن أو حاجة إلى التعاون، والذى لا تصل إليه رحمة حين يحتاج الناس إلى الرحمة، ولا رفق حين يحتاج الناس إلى الرفق، ولا رثاء حين يحتاج الناس إلى الرثاء. إنه قلب قد صور من صخر مجوف تستطيع أن تودعه كل ما شئت من أمل لا حد له، وطمع لا ينتهى إلى غاية، وجشع بشع ليس له قرار، وشهوات جامحة لا سبيل إلى ضبطها، وطموح لا يحده إلا الموت، ولكنه على ذلك مقفل مصمت من جميع جوانبه، لا ينفذ إلى داخله أيسر الضوء ولا أرق النسيم، ولا سبيل إلى تحطيمه لأنه أقسى وأصلبّ من أن تبلغ منه المعاول. فهو كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء. ولكن قلبك لا يتفجر منه نهر يفيض على الناس برحمة أو بر أو مودة أو إخاء، ولكن قلبك لا ينشق فتخرج منه قطرة تروى ظمأ الظامئ أو تخفف من لوعة المكروب، قد صور من صخر صلب صلد مصمت من جميع جوانبه. ولم يكفك ما فطر عليه من صلابة وصلادة وإصمات، فوضعت عليه قفلا لا أدرى أقصدت به إلى الإغراق فى التحفظ والاحتياط، أم قصدت به إلى التأنق والزينة وكيد الحسود، فهو قفل رشيق أنيق، تراه العين فتمتلىء النفس له إكبارا وإعظاما، ويمتلىء القلب به إعجابًا، وتتقطع الأفئدة له حسرات. قفل من ذهب نضار ترصعه ضروب الجوهر والأحجار الكريمة النادرة، قد صاغته لك الأيام فى كَرِّها والليالى فى مرها، فأنت به معجب، وله

مكبر، وعليه حريص، وأنت مفاخر، حينا تظهره حتى يملأ النفوس حسدا وحقدا، وأنت به ضنين تخفيه حينا حتى تتقطع القلوب تشوقا إليه وتفكرا فيه، وأنت في داخل هذا القلب الصلب الصلد المصمت ذي القفل الذهبي المرصع، هادئ لا تحس اضطراب من حولك من الناس، وادع لا تسمع اصطخاب من حولك من البائسين، قد أغمضت عينيك لا ترى ما يسوءك، وقد سددت أذنيك فلا تسمع ما يؤذيك، وقد ألغيت حواسك كلها أو سخرتها لهواك فلا تحمل إليك إلا ما تحب، وأنت قد تفتح عينيك وأذنيك وترهف حسك، فترى وكأنك لا ترى، وتسمع وكأنك لا تسمع، وتجد غلظ الحياة وقسوتها وكأنك لا تجد شيئا. قد حصنت نفسك بهذا القلب الصخري الصلب الصلد الذي لا تعمل فيه المعاول ولا ينفذ منه الضوء أو النسيم، وقد وضعت عليه هذا القفل الذهبي المرصع لتملأ القلوب الأخرى، التي لم تصور من صخر، وإنما صورت من لحم ودم، حزنا ويأسا وحقدا وحسدا. وأنت تنظر إلى هذه القلوب التي يحرقها الحزن وتمزقها الحسرات في كثير جدا من التعالي والكبرياء، وفي كثير جدا من الاحتقار والازدراء. ولعلك تنعم بما ترى من الشر، ولعلك تسعد بما ترى من البؤس، ولعلك تقول لنفسك حين تتحدث إلى نفسك، وما أقل ما تتحدث إلى نفسك لقد صرف عني هذا الشر وعدل عني بهذا البؤس، وأريد أن أحيا هذه الحياة الحلوة التي تشتق حلاوتها مما يحيط بها من مرارة، اللينة التي يستخلص لينها مما يحيط بها من شدة الناعمة التي يستصفي

نعيمها مما يحيط بها من البأساء.

فَلَأنعم ما دام قد كتب لى النعيم، ولَأسعد ما دامت قد أتيحت لى السعادة، وليْبتئس غيرى ولِيَشْقَ ما دام كتب على غيرى البؤس والشقاء.

حدثنى، أليست هذه دخيلة نفسك حين تخلو إليها، إن خلوت إليها، وحين تشغل عنها بما تستمتع به من لذة، وبما تجمع من ثروة، وبما تحقق من فوز؟

أليست هذه دخيلة نفسك التى لا تتحرج من أن تصارح بها حين يجرى الحديث بينك وبين نظرائك. عما يملأ الأرض من بؤس وبغض وشقاء ؟ بلى هذه دخيلة نفسك تخفيها كثيرا وتظهرها قليلا وتشغل عنها بلذتك وثروتك فى أكثر الأحيان، ولكن انظر إنك ترى فى الأرض أنهارا تجرى وينابيع تفيض، وإنك تستغل هذه الأنهار الجارية وهذه الينابيع المتدفقة لتمعن في لذاتك وتزيد إلى ثرائك ثراء، فهل علمت كيف تفجرت هذه الأنهار؟ وهل علمت كيف انشقت الأرض عن هذه الينابيع ؟ وهل علمت أن قلبك، مهما يكن حظه من الصلابة والصلادة ومن الإصمات والقسوة، لن يستطيع أن يقاوم الأحداث، ولا أن يثبت للخطوب، ولا أن يحتفظ بهذا القفل الذهبى المرصع الذى علقته أو علقته الأيام عليه ؟

إن الحوادث والخطوب تعبث بالقلوب مهما تكن قسوتها ومهما

تكن أقفالها. وإن ساعة من الدهر تأتي على هذه القلوب الصلبة الصلدة المصمتة القاسية فتذيبها، أو تحيلها هباء تذروه الرياح.

انظر، لقد كانت قبلك قلوب صلبة صلدة مقفلة قد احتسبت من ألوان اللذة والإثم، ومن ضروب الطمع والجشع، ومن خصال الأثرة والبخل: ما لا يحصى ولا يوصف. ثم أتت عليها هذه الساعة من ساعات الدهر فذهبت بها وبأصحابها. وهذه الساعة آتية عليك وعلى قلبك فذاهبة بك وبقلبك إلى حيث يذهب الناس ثم لا يرجعون.

صدقني: إن من الخير لك ولمن حولك من الناس أن تحدث في قلبك هذا المصمت المقفل صدعا يسيرا ينفذ منه الضوء ليبدد بعض ما فيه من ظلمة، وينفذ منه النسيم ليطفيء بعض ما فيه من لظى. وصدقني: إن من الخير الكثير لك ولغيرك من الناس أن تدير مفتاحك الذهبي في قفلك هذا المرصع، وأن تفتح قلبك ولو قليلا ليصل إليه بعض ما في هذا العالم مما يثير الرحمة، ويشيع الرفق، ويعطف بعض الناس على بعض.

صدقني: إن من الخير الكثير لك ولغيرك أن تصدع قلبك قبل أن تصدعه الأحداث، وأن تفتح قلبك قبل أن تفتحه الخطوب، وأن تشعر من حولك من الناس بأنك تجد بعض ما يجدون، وتعتقد مثل ما يعتقدون. أنك مثلهم قد خلقت من تراب وستعود إلى التراب، وأن الذين يستوون قبل أن يدخلوا الحياة ويستوون بعد أن

يخرجوا من الحياة ليسوا فى حاجة إلى أن يتمايز بعضهم من بعض، ويبغى بعضهم على بعض، فى هذه الطريق القصيرة التى يسلكونها بين المهود واللحود.

من بعيد

لست أدرى ما سؤالك عن هؤلاء النفر من أصدقائنا القدماء، إلا أن تكون نفسك فى حاجة إلى شىء من الألم بعد أن أغرقت فى اللذة، وإلى شىء من الحزن بعد أن أسرف عليها السرور فأنت رجل قد أتيحت لك الحياة النائية الراضية، وقضت لك الأقدار أن تستقبل النهار مغتبطا حين يشرق نوره، وتستقبل الليل مبتهجا حين تدلهم ظلمته، وتنفق ما بين إسفار الصبح وإظلام الليل فى عمل هادئ مريح، وتنفق ما بين مغرب الشمس وانتصاف الليل فى فنون من اللذات تملأ النفوس بشرا، والقلوب حبورا. وكل شىء منته إلى السأم إذا اتصل، حتى الحياة الراضية، والنعمة السابغة، والعيش الهادئ المطمئن، فلست أنكر منك أن تمل هذا النعيم المقيم، وتطمع فى الترفيه عن نفسك، بقليل من البؤس يأتيك من بعيد، وفضل من الحزن يعبر إليك البحر، ويبلغ نفسك الوادعة الهادئة، كأنه الصدى الضئيل النحيل، والناس يرفهون عن أنفسهم كما يستطيعون، والله يقسم الحظوظ بينهم كما يريد.

قوم يتعزون عن النعيم المقيم، واللذة الملحة، بالحزن الطارئ، والألم الملم. وقوم يتعزون عن الشقاء المتصل، والبؤس اللازم، بالنسمات

الخفاف اللطاف، يتنسمونها من الشمال والجنوب، إن أتيح لهم أن يتلقوا نسيم الشمال أو نسيم الجنوب. وفيك - والحمد لله - جموح وجنوح، واعوجاج والتواء، وانحراف عن الجادة حين يطول عليك السير في الجادة، وطموح إلى الشر حين تتصل عليك صحبة الخير، ورغبة في البؤس حين يثقل عليك اتصال النعيم. وعلل نفسك إن شئت بما شئت، فقل: إنك غريب تريد أن تتصل بذوي مودتك، وتتعرف من أنبائهم ما يخفف عليك ثقل الغربة، وقل: إنك وَفِيٌّ لا تنسى الصديق، وقل: إنك أمين لا تجحد حقوق الإخوان، وقل: إنك مؤثر لا تريد أن تنفرد بالسعادة والغبطة، وأن تشغل بنفسك في حياتك الجديدة الناعمة، عن الذين شاركوك في حياتك القديمة البائسة. قل ما شئت من ذلك فقد يصدقك غيري من الناس، أما أنا فقد عرفتك حق المعرفة، وبلوت من سيرتك، وأخلاقك، ومن طبعك، ومزاجك، ما يعصمني من الخطأ في تقدير ما يصدر عنك، من قول أو عمل.

لست غريبا يسأل عن الصديق ليخفف عن نفسه ثقل الغربة، ولست وفيا يسأل عن الصديق لِيَبَرَّهم ويسرهم ويؤذنهم بأنه لم ينسهم ولن ينساهم. ولست مؤثرا يسأل عن الصديق ليشعرهم بأنه لا يريد أن ينفرد من دونهم، بما أتيح له من الطيبات، وإنما أنت رجل قلق لا يستقر على حال. سئوم لا يطمئن إلى لون من العيش، طُلَعَةٌ لا يستطيع أن يعيش إلا إذا أظهرته الأيام على جديد من الأمر. وأنت بعد هذا كله أَثِرٌ

لا تستمتع بالنعمة التى تتاح لك، إلا إذا عرفت النقمة التى تصب على غيرك، ولا تسيغ اللذة التى تسعى إليك إلا إذا استيقنت أن قوما غيرك يتجرعون من الألم غصصا، ويلقون منه أهوالا.

ولقد قرأت كتابك فسرنى وساءنى، وفى كل شىء يأتى منك ما يسر وما يسوء، سرنى من كتابك أنك طيب النفس، قرير العين، رضى البال، ولست مثلك أحسد الصديق على ما يتاح لهم من الخير، وسرنى من كتابك هذه السذاجة الظاهرة، التى تثير الابتسام، وتبعث الضحك، وتدعو إلى التأمل والتفكير، وساءنى من كتابك أنك ماكر تتكلف السذاجة، وغادر تتصنع الوفاء، وخبيث الطوية تتعمل طيبة النفس، وواثق بنفسك إلى أبعد حدود الثقة، تظن أنك وحدك الماهر الماكر، وأن غيرك من الذين تكتب إليهم أغرار محمقون، لا يفهمون ما تضمر، ولا يفطنون لما تريد.

وما أريد أن أغير من أخلاقك شيئا، فليس إلى تغيير أخلاقك من سبيل، ولو تغيرت أخلاقك لضقت بك، وزهدت فيك، ورغبت عنك، فأنت كما أنت تعجبنى وترضينى، لأنك معقد النفس، وأنا أحب النفوس المعقدة، أجد اللذة كل اللذة فى حل تعقيدها، وكشف ما يصدر عنها من الرموز والألغاز، وقد أحب النفوس السمحة اليسيرة، وأكلف بما يصدر عنها من الكتب الواضحة الصريحة، التى تصدر عن القلوب، لتصل إلى القلوب، والتى تملؤها العواطف الحادة، ويفيض فيها

الشعور الدقيق، لتثير العواطف الحادة، وتفيض الشعور الدقيق، وتتيح للقلوب والنفوس، أن يتصل بعضها ببعض، فى غير مشقة، ولا جهد ولا عناء، ولكنى على ذلك، لا أكره النفوس الملتوية المعقدة، التى تقول وتريد غير ما تقول، وتعمل وتقصد إلى غير ما تعمل، وتدعو الناس إلى أن يفكروا فيطيلوا التفكير، وإلى أن يرووا فيمعنوا فى الرؤية، ليفهموا ما يصدر عنها من قول أو عمل. فعقد نفسك ما وسعك تعقيدها، والتو بقلبك ما استطعت إلى الالتواء به سبيلا، واكتب إلىّ عن هذه النفس المعقدة، عن هذا القلب الملتوى، ما شئت من الرموز والألغاز فإنى موكل بحل الرموز وفك الألغاز.

وما أريد بعد هذا أن أبخل عليك بما طلبت إلى من أنباء هؤلاء النفر من أصدقائنا القدماء، فهم على خير ما تحب لهم نفسك المعقدة، وقلبك الملتوى، وهم على شر ما تكره نفوسنا السمحة، وقلوبنا المستقيمة، من الأحوال. قد رفعتهم أعراض الحياة إلى أرقى الدرجات، وانحطت بهم حقائقها إلى الدرك الأسفل من الضعة فهم سادة قادة، يدبرون، ويقدرون، ويأمرون، وينهون، وينفعون، ويضرون. وهم عبيد أرقاء، يملكون من أمور الناس كثيرا، ولا يملكون من أمور أنفسهم شيئا.

ولست أدرى، أأنت كما عرفتك، محب للقراءة، مُنَوِّعٌ لما تقرأ، أم أنت قد شغلت بحياتك الجديدة، عن القراءة وتنويعها ؟ ولست أدرى أقرأت قصة ذلك الفتى الذى أفاق من نومه ذات صباح، فإذا هو

قد مسخ حشرة بشعة قذرة، كأبشع ما تكون الحشرات وأقذرها، ولكنه احتفظ على ذلك بحظ من عقل، فهو يعرف ما صار إليه أمره ويشقى به شقاء بغيضا، وهو يلقى أهله بعد جهد، فإذا هم محزونون عليه، منكرون له، ضائقون به، وهو يلقى الناس الذين يلمون بأهله بين حين وحين، فإذا هم نافرون منه أشد النفور، مبغضون لمنظره أشد البغض، وهو يعلم هذا كله، فتتأذى به نفسه، ويشقى به شقاء لا حد له، وما تزال الخطوب تختلف عليه، والأحداث تؤذيه فى جسمه البشع، ونفسه البائسة حتى يستأثر به الموت ذات يوم، وقد هان على أهله، وعلى غيرهم من الناس فلم يحفل به حافل، ولم يلتفت إليه ملتفت، وإنما كان موته فرجا من حرج، وسعة من ضيق.

إن لم تكن قد قرأت هذه القصة فاقرأها، واستحضر أثناء قراءتها شئون مواطنيك عامة، وشئون هؤلاء النفر من الأصدقاء القدماء خاصة. فسترى - فى كثير من الحزن إن كنت خيرًا، وفى كثير من المرضى إن كنت شريرا - أن كاتب هذه القصة. كأنما كان ينظر إلى مواطنيك، وإلى هؤلاء النفر من أصدقائك، ويستمليهم قصته هذه البشعة المروعة، فكل شىء فى حياتنا يذكر بالمسخ، ويلفت إليه، ويدعو إلى إطالة التفكير فيه. أتذكر أن وطنك العزيز قد كان فيما مضى، وطنا مجيدا يهابه الأقوياء، ويستظل به الضعفاء، وطنا خصبا لا يؤثر نفسه بما أتيح له من الخصب، وإنما ينشر النعمة من

حوله على غيره من الأوطان، لا ينشر هذه النعمة المادية وحدها، وإنما ينشر معها النعمة المعنوية التى تغزو القلوب والعقول، وتمد ضوء الحضارة إلى أبعد الآماد. أتذكر هذا كله ؟ فانظر إلى وطنك الآن، كيف انزوى وتضاءل، وكيف هان أمره على نفسه، وعلى الناس، وكيف أصبح أضعف من أن يستقل بأيسر شئونه، وينهض بأهون أعبائه، وكيف أصبح قليل الخطر، هين الشأن، ينظر إليه الناس ضيقين به، أو مشفقين عليه. أتراه قد مسخ كما مسخ ذلك الفتى، أم تراه قد ظل كما كان مصدرا للخصب، والقوة، والمجد، والبأس، ولكن أهله قد مسخوا. كما مسخ ذلك الفتى، فأصبحوا لا يصلحون للعيش فيه، وأصبح هو لا يصلح لإيوائهم!

أتذكر هذا البيت الذى يرويه أبو العلاء فى رسالة الغفران:

أعجبى أمنا لصرف الليالى مسخت أختنا سكينة فأره

لقد كنا نضحك حين كنا نقرأ هذا البيت. أما الآن فلو قد عبرت إلينا البحر وشاركت فى الحياة التى نحياها، لانشدت هذا البيت غير ضاحك ولا باسم، بل لأنشدت هذا البيت كما كان ينشده صاحبه، فى كثير من الحزن والعطف والرثاء لأنه كان يعتقد عن يقين أن أخته سكينة، قد مسخت فأرة، ولأنك سترى كما أرى، أن كثيرا من إخواننا القدماء، قد مسخوا جرذانا أو حيوانات أخرى، ليست أحسن حالا من الجرذان. كل ما بينهم وبين هذه الجرذان من الفرق، هو أن

أجسامهم قد احتفظت بصورها القديمة، فهى معتدلة القامة، تمتد طولا وعرضا، كما تمتد أجسام الناس، لم يصبها المسخ، وإنما أصاب ما يعيش فيها من النفوس، وذلك أشد نكرا، وأعظم بلاء. وأى شىء أبشع من أن تتقمص نفوس الجرذان أجسام الناس !

صنع الله لصديقنا فلان ! لقد كنا نراه ذكى القلب، أبى النفس، نافذ البصيرة، مستقيم الخلق، طموحا إلى الرفيع من الأمر، متنزها عن الدنيات، خرج من بيئته القديمة المتواضعة، فمضى أمامه هادئا مطمئنا، ناظرا دائما إلى أمام، غير ملتفت إلى وراء إلا قليلا، كأنما كان يريد أن يتبين طول الطريق التى قطعها، منذ فارق بيئته تلك، وكأنما كان يريد أن يعتبر بقديمه، ليستقبل جديده فى غير غرور ولا كبرياء. وقد استقام له الأمر ما مضى أمامه هادئا مطمئنا، وكان خليقا أن يستقيم له لو أتيح له أن يمضى هادئا مطمئنا، ولكنه دفع فى غير أناة، واختطف فى غير ريث، ووثب إلى أرقى مما كان يطيق، فارتقى فجأة فى غير إعداد ولا تمهيد، وانتهى إلى بيئة جديدة، قد بعدت الأماد، وتقطعت الأسباب، بينها وبين بيئته القديمة. فأصبح أشبه بالديك الذى يوضع موضع النسر، ويراد على أن يحلق فى أشد الأجواء ارتفاعا، وليس هو من هذا التحليق فى شىء، وإنما قصاراه شرف متواضع، يرقى إليه ليستقبل الصباح بالصياح، ولينفش ريشه كلما أتيح له أن ينفشه. فأما أن يرقى فى أجواز السماء فلا، لأن

جناحيه أضعف من أن يبلغا به هذه المنازل المسرفة فى العلو. ولو قد رأيته كما أراه، ديكا يسير سيرة النسر، لضحكت قليلا، وبكيت كثيرا، فقد كان خليقا بمنزلة أخرى غير منزلة الديك، وخلق آخر غير خلقه، ولكن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى، وقد أنبت صاحبنا، فلم يقطع أرضا ولم يبق ظهرا.

وعفا الله عن صديقنا فلان، لقد كنا نراه نقى النفس، طاهر القلب، صافى الطبع، مصقول الضمير، حريصا أشد الحرص، على أن يتبع الصراط المستقيم، لا ينحرف عنه إلى يمين أو إلى شمال، مهما تكن الظروف والخطوب. وكنا نعجب بحبه للاستقامة، وبغضه للاعوجاج، وكنا نضربه للقصد مثلا، ونراه للاعتدال نموذجا.

ولكن طريق الحياة لا تستقيم إلا لأولى العزم من الناس، أو قل إنها لا تستقيم لأحد، وإنما يكرهها أولو العزم من الناس على أن تستقيم، يقتحمون ما يقوم فيها من العقاب، ويرتفعون عما يعترض فيها من دواعى المحنة والفتنة والفساد، ولم يكن صاحبنا من أولى العزم، ولا من ذوى البصائر، وإنما كان رجلا طيب القلب، ومن طيبة القلب ما يكون ضعفا. فقد مضى فى الطريق المستقيمة ما استقامت له، فلما انحرفت به انحرف معها، ولم يستطع أن يمتنع عليها، وقد نثرت الحياة أمامه أشواكا فأشفق منه، ونثرت أمامه أزهارا فتهالك عليها. نشرت أمامه الهول فخاف، ونصبت أمامه المغريات فاندفع، وما هى إلا أن تتصور

نفسـه بهـذه الصـورة المرنة الليئـة، التى لا تثبـت لشـىء ولا تمتنع على شـىء، وإنما هى تجزع للنبأة اليسـيرة وتسـتجيب لأيسر المغريات، تفر عنـد الفـزع، وتقبـل عنـد الطمـع، والغريب أنهـا على ذلك كلـه ترى فى نفسها الخير، وتؤمن لنفسها بالحكمة، ومضاء العزم.

قيل لها ذلـك فصدقتـه، واطمأنـت إليه، ولم تنـس إلا شـيئا واحدا، وهـو أنهـا تبعـت أحداث الحيـاة، وتأثرت بهـا، فى غـير مقاومة، حتى أصبحت أشـبه شـىء بالكلـب، إن تحمل عليه يلهـث، أو تتركه يلهث. وأشـهد مـا رأيت هذيـن الصاحبين القديمين، إلا رجعـت من فورى إلى كتـاب الحيـوان للجاحـظ، فقـرأت فيـه طرفا مـن احتجـاج صاحب الكلب للكلب، وطرفا من احتجاج صاحب الديك للديك.

ورفق الله بصديقنا فلان، أتذكره ؟ لقد كان في أول عهده بالشباب، تقيـا نقيـا، وسمحا رضيا، حلو العشـرة، عـذب المنطق، حسـن المدخل، سهل القياد. كنا نضحك من سلامة قلبه، وبراءة نفسه، وسذاجة عقله. كنا نغره فيغتر، وكنا نخدعه فينخدع، وكنا نضحك من استجابته لكل دعـاء، وتصديقه لكل كلام. ولكن كنا نجهل أن من الحيات ما لا يعيش إلا فـى كثبـان الرمـل المتهيلة، التـى لا تتلبـد، ولا تتجمد، ولا تسـتطيع الإقدام أن تمضى فيها دون أن تغوص.

نعـم، وكنـا نجهل أن مظهـر صاحبنا ذاك، لم يكـن إلا كثيبا من هذا الرمل السـهل اللين، الذى تغوص فيه الأقدام، ويعبث به أيسـر النسـيم،

وأن فى هذا الكثيب المهيل، حية تهدأ فتحسن الهدوء ما جنها الليل، ثم تسعى فتحسن السعى ما أضاءت لها الشمس، وهى فى أثناء سعيها وهدوئها موفورة السم، حديدة الناب.. تأزم فتحسن الازم، ولا يدنو منها أحد، إلا أصابه من سمها حظ موفور.

وإنه على ذلك لعذب اللفظ، لين القول، حلو الحديث، خلاب جذاب، يروق مظهره، ويروع مخبره، ويشقى به القريب منه، والبعيد عنه.

حية وكلب وديك. هؤلاء هم أصدقاؤنا القدماء. فابك إن كنت خيِّرا، وأضحك إن كنت شريرا، وأرسم على ثغرك ابتسامة حزينة مرة، إن كنت شيئا بين الخير والشرير، وثق على كل حال، بأن أصدقاءنا هؤلاء، لم ينفردوا بما كتب عليهم من المسخ، وإنما هى محنة عامة، يمتحن الله بها هذا الوطن البائس فى كثير من بنيه.

وقد تسأل عن مصدر هذه المحنة، وأصل هذا البلاء، فاعلم أنه الانتقال السريع، يفسد بعض النفوس، ويغير بعض الأخلاق، ثم لا يلبث أن يمضى بخيره وشره، وأن يرد الشعوب إلى حياة ملائمة لطبائع الأشياء، يكثر فيها الناس الذين يتقمصون أجسام الناس، ويقل فيها الحيوان الذى يتصور فى صورة الإنسان.

أما بعد، فإن فى مدينتك الجميلة حدائق للحيوان، تستطيع أن تنزه فيها عينيك، وعقلك، ولكن حدائقك كلها، على كثرة ما فيها من الغرائب والطرائف، ونوادر الأنواع، لن تقدم إليك كلابا، وديكة،

وحيات، فى صور الناس. فإذا لم يشق نفسك وطنك العزيز ولم يدفعك الشوق إلى الرغبة فى عبور البحر، فلا أقل من أن يدفعك إلى عبور البحر ما يكتظ به وطنك من هذه الطرائف والغرائب والنوادر التى تمرح على ضفاف النيل، وتستظل بظل الأهرام.

أمقبل أنت لتشهد من قريب، أم قانع بما يأتيك من بعيد... ؟

صرعى

أتذكر قول زياد رحمه الله فى خطبته المشهورة لأهل البصرة:
«وأيم الله إن لى فيكم لصرعَى كثيرة، فليحذرْ كلُّ أمرىءٍ منكم أن يكونَ من صرعاى»؟

فإن هذه الجملة الخالدة لم يعرب بها زياد عن ذات نفسه، ولا عما كان بينه وبين أهل العراق من صلة، ولا عما كان قد رسم لحكمه من سياسة عنيفة، ولا عما كان قد فرض على نفسه من الحزم والعزم فى تدبير أمور الناس وحملهم على الجادة راضين أو كارهين. لم يعرب زياد بهذه الجملة عن هذا كله فحسب، وإنما أعرب بها عن شىء أعم وأشمل من سلطانه، وأبقى وأخلد من سيرته، عن شىء يتصل بحياة الناس جميعا، ويؤثر فى أعمالهم جميعا، بل فى آمالهم جميعا، عن شىء وجد منذ وجد الإنسان، وسيبقى ما بقى الإنسان، ولن يزول حتى يرث الله الأرض ومن عليها. عبر زياد عن هذا الغرور الذى يدفع الناس إلى أن يعملوا، ويدفع الناس إلى أن يأملوا ويفسدوا على الناس أعمالهم وآمالهم، ويرديهم آخر الأمر فى هوة عميقة غير ذات قرار من البؤس واليأس والقنوط.

لست أدرى أيهما استعار من صاحبه هذه الجملة الخالدة التى

تصورا الموعظة البالغة ؟. أترى أن زيادا قد استعارها من الغرور الذى كان يلقيه على الناس وظل يلقيه على الناس فى كل لغة وفى كل بيئة وفى كل عصر وفى كل جيل ؟ وأية غرابة فى ذلك فالخطباء المتفوقون، والكتاب المبرزون، والشعراء الملهمون، تتصل أسبابهم بأسباب المعانى الخالدة، فيستعيرون منها ما يشاءون ويستهدون منها ما تنطلق به ألسنتهم وتجرى به أقلامهم، فيبقى بقاء الدهر، ويتصل اتصال الزمان؟ أم ترى أن الغرور كان يعظ الناس كما يستطيع، ثم أتيحت له هذه الجملة الخالدة من خطبة زياد فاتخذها لنفسه رمزا، وساق فيها موعظته الخالدة إلى القلوب والنفوس والعقول ؟.

ومهما يكن من شىء فلم يعرب أحد عن حديث الغرور إلى نفوس الناس كما أعرب عنه زياد. والغريب أن الناس استمعوا لزياد فامتلأت قلوبهم خوفا وروعا وإشفاقا. وأشفق كل امرىء منهم أن يكون من صرعى زياد، ولكنها أيام أو أسابيع أو شهور تمضى وإذا الناس ينسون الخوف فيما ينسون، ويجهلون الروع فيما يجهلون، ويعرضون عن الإشفاق فيما يعرضون عنه، وإذا هم يسرعون إلى الهول أو يسرع الهول إليهم، وإذا صرعى زياد يكثرون، تمتلىء ببعضهم السجون، وتمتلئ ببعضهم القبور، لأن الناس لم يكادوا يسمعون حديث زياد حتى نسروه. وهم كذلك يسمعون حديث الغرور إلى قلوبهم ونفوسهم وعقولهم، ثم ينسون هذا الحديث. فيسرعون إلى الخطر

أو يسرع الخطر إليهم، ويتساقطون في الشر كما يتساقط الفراش في النار، ويصبحون من صرعى الغرور وقد حذرهم الغرور مع ذلك أن يكونوا من صرعاه. ذلك أن الغرور يتحدث إلى الناس حديثين مختلفين فيما بينهما أشد الاختلاف. يسوق أحدهما إلى ما في الناس من تهالك وضعف، وإلى ما فيهم من طمع وطموح وإلى ما فيهم من حب للطيبات، وإيثار للعافية، ونزوع إلى ما يرضي الحاجة ويقنع اللذة، ويتملق الحس ويخادع الشعور، ويخدع العقل عن حقائق الأشياء.

يسوقه إلى استعدادهم للاستجابة للإغراء حين يوجه إليهم الإغراء. يخيل إليهم أن الحياة قصيرة فيجب أن تنتهز، وإنها إنما منحت للناس ليحيوها هادئة ناعمة، ولينة باسمة، ومشرقة راضية تتحقق فيها الآمال وترضى فيها الكبرياء.

ويسوق أحدهما الآخر إلى ما نفوس الناس من قوة وجلد وصبر على المكروه وثبات للخطوب، وتعمق للأشياء ونفوذ إلى حقائقها وإيمان بأن الحياة لم تخلق عبثا ولم تمنح للناس سدى، وبأن الفرد لم يخلق لنفسه وإنما خلق لمواطنيه، وأن الأمة لم تخلق لنفسها وإنما خلقت للإنسانية. وأن الحياة قصيرة فيجب أن تنتهز لتحقيق النفع، وتعميم الخير، وترقية الحضارة، وإقرار العدل. ذلك أحرى أن يمد قصرها ويصل منقطعها، ويجعل زائلها خالدا، وباطلها حقا، والمنقضي منها متصلا.

بهذين الحديثين يتحدث الغرور إلى الناس دائما، يعدهم ويمنيهم،

ويطمعهم ويغريهم، ثم يعظهم ويحذرهم ويدعوهم إلى الرؤية والاعتبار.

فأما أكثر الناس فتستخفهم الوعود، وتزدهيهم الأماني، وتذهب بأحلامهم الأطماع، ويعبث بعقولهم الإغراء، وإذا هم من صرعى الغرور. وأما أقلهم أو الأقلون من أقلهم فلا يستجيبون للعدة الكاذبة التي تمر بها من دونهم رياح الصيف كما يقول الشاعر القديم، وإنما يملكون على نفوسهم أمرها، ويصبرونها على ما تحب وعلى ما تكره، ويوجهونها إلى ما يسرت له من الخير فينفعون وينتفعون وينجون من عبث الغرور بهم وتسلطه عليهم، ويأمنون أن يكونوا من صرعاه.

وابتسم يا سيدي ما شئت أن تبتسم، واغرق في الضحك ما طاب لك الإغراق في الضحك. وسل نفسك أو لا تسلها عن هذا الحديث... ما مصدره وما غايته وما معناه ؟ فليس لهذا الحديث مصدر إلا ما أنت فيه، وليس لهذا الحديث غاية، إلا ما أنت فيه، وليس لهذا الحديث معنى إلا ما أنت فيه. والناس يهنئون أصدقاءهم كما يستطيعون، ويهدون إليهم من التحية ما يملكون. فهذه هي التهنئة التي استطعت أن أسوقها إليك، وهذه هي التحية التي أملك أن أعرضها عليك، فاقبلهما إن شئت، وارفضهما إن أحببت. فالله لا يكلف نفسا إلا وسعها، والله لا يحمل الناس على ما لا يطيقون.

أتذكر تلك الأيام البعيدة المسرفة في البعد حتى كاد ينساها الزمان، القريبة المسرفة في القرب حتى ما أستقبل الصباح

ولا أستقبل المساء ولا أستقبل عملا من الأعمال بينهما إلا كنت لها ذاكرا، وفيها مفكرا، وبها حفيا ؟ لقد بعدت تلك الأيام منك حتى كأنها لم تمر بك أو كأنك لم تمر بها، وحتى كأنك تخلق في كل يوم خلقا جديدا ينسيك اليوم الذي قبله، كما ينسى الناس عادة ما يمكن أن يكون قد اختلف على نفوسهم من الأحداث والخطوب قبل أن يدفعوا إلى هذه الحياة. ولقد قربت هذه الأيام مني حتى كأني لم أخلق إلا لأعيش فيها. وكأنها لم تخلق إلا لتأخذني على طرق الحياة فلا أستطيع أن أخرج منها ولا تستطيع أن تنأى عني، وإنما وقفت على ووقفت عليها، وقيل للزمن ألا يتقدم حتى لا أتجاوزها وألا يتأخر حتى لا أرد عنها. فأنا سجينها، وهي سجينتي، قد أكرهنا على أن يصطحب، فلن أجد منها مخرجا، ولن تستطيع عني انصرافًا.

أتذكر تلك الأيام ؟.. أنفق شيئا من الجهد لعلك تستحضر منها ظلالا ضئيلة إن أمكن أن تكون للأيام ظلال. أنفق شيئا من الجهد حين تخلو إلى نفسك، إن استطعت أن تخلو إلى نفسك، واستحضر بعض تلك الأيام التي كنا نستقبلها باسمين لها. وكانت تستقبلنا باسمة لنا. وكان في ابتسامنا وابتسامها هدوء مطمئن يملأ القلوب ثقة ورضا وأمنا. لم نكن نطمع في شيء إلا أن نعلم في كل يوم يقبل علينا أكثر مما كنا نعلم في كل يوم يدبر عنا.

وكان ذلك إلينا وحدنا لا يستطيع أحد أن يردنا عنه، أو أن يرده

عنا. إنما هو حب للمعرفة، وإقبال عليها، وإلحاح فى طلبها، واستمتاع بهذا الإلحاح، وتزيد من هذا الاستمتاع.

أتذكر تلك الأيام ؟.. لقد كانت لنا فيها آمال محببة إلى نفوسنا، أثيرة فى قلوبنا، متواضعة تواضع العلم، متعالية تعالى العلم، لا يستطيع أحد أن يصدنا عنها، ولا يستطيع أحد إن يصدها عنا. لم نكن نريد إلا أن نهتدى إلى الحق ونهدى إليه، لم نكن نريد إلا أن نصل إلى الخير ونوصل إليه، لم نكن نريد إلا أن نملأ قلوبنا علما إن أمكن أن تمتلئ القلوب، ثم ننشر العلم من حولنا ما وجدنا إلى نشره سبيلا. كانت أمامنا من الجهل والغى والسخف صورة بشعة منكرة، ولكنها لم تكن تخيفنا ولا تروعنا وإنما كانت تدعونا إلى نفسها، لا لنحبها بل لنبغضها، لا لنبقيها بل لنلغيها.

أتذكر تلك الأيام ؟... لقد كانت قلوبنا فيها نقية نقاء الشمس، رخية رخاء النسيم، عذبة عذوبة الماء الذى صفا. فلا يشوبه كدر ولا يفسده رنق. أتذكر تلك الأيام ؟ لقد كانت آمالنا نقية نقاء قلوبنا، رخية رخاء طباعنا، صافية صفاء أمزجتنا. فى تلك الأيام البعيدة القريبة آمنت نفوسنا، لأن الإصلاح وحده هو الذى سيستأثر بها وبما تملك من قوة وجهد، ومن غير القوة والجهد مما تملك النفوس.

فى تلك الأيام ساق إلينا الغرور حديثيه. ساق إلينا حديث الإغراء فأعرضنا عنه إعراضا، وساق إلينا حديث الإباء فأقبلنا عليه إقبالا.

فى تلك الأيام ثبتنا للمكروه وصبرنا على الشر، وصب علينا الأذى فلم يبلغ منا، وأطاف بنا الكيد فلم يصل إلينا، وقامت أمامنا العقاب (جمع عَقَبة) فلم تردنا عن الغاية، ولم تصدنا عن الطريق:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

ما أكثر ما قرأنا هذا البيت من شعر، وما أكثر ما تمثلنا به حين كنا نسمع أحاديث بعض الناس الذين كانوا يستجيبون للغرور فيصبحون من صرعاه. وأقسم ما خطر لى قط أنى سأتمثل بهذا البيت ذات يوم حين أقرأ الصحف مصبحا أو ممسيا. فإذا لسانى ينطق، وما أردت إنطاقه، بقول الأعشى:

شتان ما يومى على كورها ويوم حيان أخى جابر

فرحم الله زيادا وتجاوز عن خطيئته. أقدر حين ألقى خطبته تلك، أنه كان يعرب أحسن الإعراب عن حديث الغرور إلى أولى العزم من الناس حين قال: « وأيم الله إن لى فيكم لصرعَى كثيرة، فليحذر كل امرىء منكم أن يكون مِنْ صرعَاى »!.

نفوس للبيع

لا ترع يا سيدى لا ترع، فليس فى أمر صديقك ما يدعو إلى الروع، لقد وثقت به كما لم تثق بأحد، واعتمدت عليه كما لم تعتمد على أحد، واطمأننت إليه كما لم تطمئن إلى إنسان. ثم نظرت ذات يوم فإذا ثقتك وهم، وإذا اعتمادك هباء، وإذا اطمئنانك غرور، وإذا صديقك الذى أصفيته حبك، واختصصته بودك، وأظهرته على سرك، وأعددته لكل ما يعرض من أمرك يمكر بك ويكيد لك ويتخذك وسيلة إلى تحقيق المنافع، وبلوغ الآراب.

ومـاذا تنكر من ذلك وهو شىء يجرى فى كل يوم، ويحدث فى كل وقت، صورته الآداب القديمة فأحسنت تصويره، وعرضته الآداب الحديثة فأحسنت عرضه، وأنت رجل مثقف قد قرأت من غير شك ما كتب الكتاب، ونظم الشعراء فى الوفاء القليل والغدر الكثير وفى الأخ الذى يمنحك وده ما احتاج إليك، وإعراضه ما استغنى عنك، وفى الصديق الذى:

يعطيكَ مِن طرفِ اللسانِ حلاوةً ويروغُ منكَ كما يروغُ الثعلبُ

وفى الولى الذى يواتيك ما استقامت لك الحياة، ويجافيك حين تعرض عنك الدنيا، وفى الصاحب الذى يرضى عنك ما رضى عنك

السلطان، ويسخط عليك ما سخط السلطان. كل هذه أوليات قد قرأتها في الكتب، وسمعتها في حجرات الدرس، وتحدثت بها إلى الناس وتحدث الناس بها إليك، ثم ها أنت ذا ترتاع لأنك جربت ما جربه الناس من قبلك ومن حولك، وبلوت في ذات نفسك ما بلاه الناس في كل عصر وفي كل جيل. أتعرف ما يدل عليه هذا الروع الذي يملأ قلبك، وهذا الحزن الذي يغمر نفسك، وهذا البؤس الذي يفعم ضميرك ؟ إنما يدل هذا كله على شيء واحد يسير، أولي لا غرابة فيه ولا مشقة في فهمه، يدل على أنك تقرأ الكتب وتشهد الأحداث وترى العبر والمواعظ، فتزعم لنفسك وللناس أنك تنتفع بما تقرأ وما ترى وما تشهد، وتخيل إلى نفسك وإلى الناس أنك تستفيد مما امتلأت به الحياة من التجارب، على حين أنك لم تنتفع، ولم تستفد، ولم تصل الموعظة إلى قلبك، ولم تبلغ العبرة دخيلة نفسك، ولم تؤثر التجربة في ضميرك.

فأنت تؤمن بهذا كله إيمانا ظاهرا لا عمق له ولا استقرار، حتى إذا دهمتك الأحداث وألحت عليك الخطوب وجدتك طفلا قليل التجربة ضئيل الاختبار، فروعتك كما يُروِّع الطفلَ ما يعرض له من الوهم.

فَكِّرْ كم شيعت من جنازة؟، وكم جزعت لفقد صاحب أو أخ أو صديق ؟ وكم استيقنت فيما بينك وبين نفسك؟، وعلمت بينك وبين الناس أن الحياة باطل وأن الدنيا غرور، وأن الآمال لعب وأن الأماني

كذب ؟ ثم فَكِّرْ كيف انجلت عنك الغمرات؟، وكيف استقبلت أيامك راضيا عنها، باسما لها، مبتهجا بها، مجاهدا فى سبيل ما تبتغى من المنافع والمآرب كأنك لم تشيع جنازة، ولم تفقد صديقا، ولم تتعظ بموت، ولم تستيقن أن الحياة وما فيها باطل وغرور.

لا ترع يا سيدى، لا ترع، إن فقد الصديق حين يختطفه الموت إلى غير رجعة يؤنسك من الحياة حينا يقصر أو يطول، ولكنه لا يلبث أن يرد إليك الأمل، ويملأ قلبك بالأمانى ويدفعك إلى العمل، ويملأ نفسك نشاطا ومرحا، فكيف بما يعرض لك من فقد الصديق الحى الذى لم يختطفه الموت إلى غير رجعة، وإنما اختطفته المنفعة إلى رجعة قريبة أو بعيدة. إنه يعرض عنك اليوم، فقد يقبل عليك غدا، إنه يمكر بك الآن فقد يمكر بعدوك بعد حين، إنه يأتمر بك ليؤذيك فى هذه الظروف فقد يأتمر لك لينفعك فى ظروف أخرى.

خذ الحياة كما هى، وخذ الناس كما هم، وقدر أن مما يلائم طبائع الأشياء أن يموت الناس وهم أحياء، وأن يحيا الناس وهم أموات. إنك تأسى لما فقدت من صديقك هذا الذى تنكر لك وائتمر بك، وألب عليك، ولكنك تنعم بهذه الذكرى التى تستبقى لك أولئك الأصدقاء الذين اختطفهم الموت فتولوا عنك، لم يمكروا بك ولم يكيدوا لك ولم يؤلبوا عليك.

قوم يموتون وهم أحياء فَتَعَزَّ عنهم وأصبر عليهم، فقد ترد إليهم

الحياة ذات يوم، وقوم يحيون وهم أموات فاذكرهم أجمل الذكر، واستبق حبهم فى قلبك، وودهم فى ضميرك، وامنحهم بين حين وحين كلمة خير ودمعة وفاء.

لا ترع يا سيدى، لا ترع، فإن هذا الأمر الذى يؤذيك ويضنيك ويشق عليك لا يجرى عليك وحدك، وإنما يجرى على غيرك من الناس. انظر من حولك فسترى نفوسا تعرض للبيع وأخلاقا تعرض للمساومة، منها ما يباع بثمن بخس، ومنها ما يباع بثمن لا بأس به. ولكنها كلها تباع على كل حال.

وما الذى تنكر من ذلك وحياة الناس رهينة بمنافعهم ومآربهم، وحضارة الناس شىء مكتسب ليس من الضرورى أن يمتزج بدمائهم ويجرى فى عروقهم، ويصبح لهم مزاجا وطبعا، وإنما هو شىء متكلف لا يؤمن به ولا يؤمن له إلا الأقلون. أما الأكثرون فيتخذونه وسيلة يتقى بها بعضهم شر بعض، وقد يبتغى به بعضهم شر بعض.

فكر. إن هذه الأزمات التى تلح على الناس منذ أول هذا القرن تلقى عليهم دروسا فيها الخوف، وفيها الإغراء، فيها اليأس وفيها الرجاء، فيها انتهاز الفرص وفيها الثبات على الخلق الكريم.

إن هذه الأزمات تعلم الناس أن الحياة قصيرة هينة رخيصة، فمن الخير انتهازها والانتفاع بها إلى أقصى آماد الانتفاع. هذه الملايين التى أرسلت إلى الموت ابتغاء العدوان، وهذه الملايين التى أرسلت إلى

المـوت ابتغـاء دفع العدوان، وهـذه الملايين التى عذبـت فى معتقلات الأسـر، وهذه الملايـين التى صب المـوت والعذاب عليها صبا لا لشـىء إلا لإرضـاء حاجـة الإنسـان إلى البغى والإثـم واللذة البشـعة. كل هذه الملايـين قد أقامت الدليل للناس على أن الحياة قصيرة هينة رخيصة، وأقرت فى نفوس كثير من الناس أن الحزم إنما هو فى انتهاز الفرصة واقتضـاء المنفعة والاستمتاع باللـذة، مهمـا تكن النتائـج ومهما تكن الظـروف. فمـا الـذى تنكر من أن يدعـو هذا كله إلى إهـدار القيم التى ألفتهـا، وضيـاع المقاييس التى نشـأت عليها ؟ وما الـذى تنكر من أن يتحـول عنـك الصديق لأنهم لايجدون عندك منفعـة ولا مأربا، أو لأنهم يجدون عند غيرك من المنافع والمآرب أكثر مما يجدون عندك ؟

لا ترع يا سيدى، لا ترع، فليس فى الأمر ما يدعو إلى الروع. وإنما أنت خليق أن تختار بين اثنتين، وأن يكون اختيارك عن حزم وبصيرة، وعن روية وتفكير، وعن أناة وتحفظ واحتياط. فإما أن تستبقى ما نشـأت عليه من خلق، وما فطرت عليه من مزاج، فتمتنع على الغواية، وتقاوم الإثم، وتصون نفسك من أن تكون سلعة تعرض للبيع والشراء، وتعصم أخلاقك من أن تكون موضوعا للمسـاومة، وما يكون فى المسـاومة من ارتفـاع الأثمان وهبوطها، وإذن فأيسـر ما يجب عليك إذا اخترت هذه الخصلة، أن ترضى بالقليل، وتقنع باليسير، وتروض نفسك على غدر الصديـق وخيانـة الإخـوان، وتحول الرفـاق وتنكر الخـلان. تلقى ذلك

باسما لـه وسـاخرا منـه إن كنـت مـن أولى العزائـم الماضيـة والهمم العالية، وتلقى ذلك شـقيا به محزونا له، ولكنك تحتمله على كل حال، إن كنـت مـن الصادقـين الذين لم ترتفع نفوسـهم إلى منـزل النـابغين والأفـذاذ. وإمـا أن تـدور مع الزمن وتسـاير الحياة، وتنعم حين تسـاق إليـك، وتعرض نفسـك للبيع حين تسـنح الفرصة لـك، وتختطف اللذة حين تساق إليك وتعرض نفسك للبيع فتبيعها بالثمن الغالى إن أتيح لك، وبالثمن الرخيص إن لم تجد بدًا من قبول الثمن الرخيص.

لا تـرع يا سـيدي، لا ترع، فليـس فى الأمر ما يدعـو إلى الروع. إنك قـد اخـترت الخصلة الأولى إلى الآن فلم تزدهك المنافع، ولم تسـتخفك اللـذات، ولم يسـتهوك السـلطان، ولم تبـع نفسـك مـع البائعـين. وقد لقيـت فـى ذلك كثيرا مـن الأذى، وصبرت نفسـك فى ذلـك على كثير من المكروه، ورأيت أصدقاءك من حولك تتخطفهم المنافع، ويصرعهم حب الشهوات.

ثـم إنـك تنظـر فـى كل يـوم فـترى نفسـك تسـرع إلى الوحـدة أو تسـرع الوحـدة إليـها، وترى نفسـك مقبـلا على العزلـة، ممعنـا فيها، إمـا لأن النـاس مـن حولـك يضيقون بتحفظـك وتزمتـك فينصرفون عنـك، وإمـا لأنـك تضيـق بتهالـك النـاس و تهافتهم وتسـاقطهم على المنافع الوضيعة.

كما يتساقط الذباب على العسل أو كما تتساقط الفراش فى النار،

فتنصرف عنهم، وتنشد قول الشاعر القديم:

حى الحمول بجانب الرمل اذ لا يلائم شكلها شكلى

نعم يا سيدى، أنت قد آثرت الخصلة الأولى. فلم تعرض نفسك للبيع ولم تطرح أخلاقك للمساومة. وأنت ترى النفوس من حولك تنباع، وترى الأخلاق من حولك تعرض للمساومة، فيؤذيك ما ترى، ويداخلك الشك فيما اخترت لنفسك من سيرة وما سلكت بها من طريق.

وما أرى إلا أن هذا الروع الذى يملأ اليوم قلبك ويفسد عليك أمرك، لأن صديقك هذا قد تحول عنك وجزاك بالوفاء خيانة وبالبر مكرا وكيدا، ليظفر بمنصب خطير يغل عليه ما لا لم يكن يحلم بأقله، ما أرى إلا أن هذا الروع مظهر من مظاهر الشك الذى يخامر نفسك ويداخل ضميرك. فأنت حائر لا تدرى أمخطىء أنت أم مصيب ؟ وأنت تسأل نفسك، ولولا الحياء لسألت الناس، أعاقل أنت أم مجنون ؟

إن المنافع تسعى إليك، وإن الآمال تتراءى لك. خلابة جذابة براقة، وإنك ترى الناس من حولك يسعون إلى المنافع ويتهالكون على الآمال، وإنك تهم أن تفعل كما يفعلون ثم ترد نفسك إلى الحزم وتأبى عليها الهوان. وما أكره لك هذا الروع، وما أشفق عليك من هذا الشك. فلست أحب للرجل الكريم أن تكون كرامته عادة مألوفة وشيئا يسيرا لا مشقة فيه، وإنما أحب له أن يكسب كرامته كسبا

ويأخذها غلابا، ويفرضها على الناس فرضا، وأن يعرض له الشك في كل يوم، فلا يبلغ منه شيئا، وأن يلح عليه الإغراء في كل ساعة فلا يلين له قناة، فهو ناظر لنفسه في كل لحظة ومدافع عنها في كل حين. فجدد الاختيار لنفسك بين الحياة السهلة اليسيرة الحلوة المواتية، وبين الحياة الصعبة العسيرة المرة المجافية.

فإن اخترت الثانية فنعم الصديق، وإن اخترت الأولى فثق بأني لن أروع لفقدك، كما روعت أنت لفقد صديقك. ذلك لأني وطنت نفسي على موت الأصدقاء وهم أحياء، وعلى حياة الأصدقاء وهم أموات، ولأني أنشد نفسي من حين إلى حين هذا الشعر الذي رد معاوية عن الانهزام يوم صفين:

وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

كما أنت

كما أنت أيها الصديق الكريم، لا تقم إن كنت قاعدا، ولا تقعد إن كنت قائما، ولا تتحول عن مكانك إلى يمين أو شمال، ولا ترجع إلى وراء، وإنما امض إلى أمام إن أحببت المضى، فإنما هو كلام يقال فى كل عصر وفى كل جيل... قلناه حين كنا شبابا فلم نغير مما كان حولنا شيئا بالقول، وسيبلغون فى يوم من الأيام ما بلغنا من السن، وسيصلون إلى ما وصلنا إليه من المنازل، وسيقول لهم أبناؤهم وأحفادهم مثل ما يقولون لنا الآن، ومثل ما قلنا نحن لآبائنا وأجدادنا من قبل، فلا يغيرون شيئا بالقول كما لم نغير شيئا، لأن تغيير الأشياء لا يكون بالكلام الذى يقال عن إخلاص أو عن تكلف، وعن تفكير أو عن اندفاع، وإنما يكون بالعمل الذى ينقل الأشياء من طور إلى طور، ويضعها حيث يجب أن تكون.

كما أنت إذن أيها الصديق الكريم، لا تغير من حياتك ولا من سيرتك شيئا، بل لا تغير من رأيك فى الأحياء والأشياء إلا أن يدعوك التفكير وتضطرك الأحداث وطبيعة الحياة إلى أن تغير من رأيك قليلا أو كثيرا.

كما أنت لا تُزِلّ عن ثغرك هذه الابتسامة السمحة التي ألفت أن تلقى بها الناس، وما يختلف عليهم من الأطوار وما يلم بهم من الخطوب، ولا تلق على وجهك هذا القناع المشرق الوضاء الذي يزيده العزم إشراقًا والحزم وضاءة، والذي تلقى به المصاعب مجاهدا لها حتى تقهرها وتظهر عليها.

ما أكثر ما كان يقال لك مما تحب ومما لا تحب، وما أكثر ما كنت تسمع لهذا وذاك، فلا تنحرف عن طريقك حتى تبلغ الغاية، ولا تنصرف عما صممت عليه حتى تنتهي منه إلى ما كنت تريد، فما ينبغي أن تنال الألفاظ منك في هذه الأيام ما لم تكن تستطيع أن تناله فيما مضى من الأيام، إلا أن يكون الضعف قد أصابك والهرم قد بلغ منك، فأنت حينئذ مضطر إلى أن تريح وتستريح، لا لأن هؤلاء النفر أو أولئك النفر تقدموا إليك في أن تريح وتستريح، بل لأن طبيعة الحياة نفسها هي التي تفرض عليك أن تريح وتستريح.

متى رأيت الشباب يحبون المهل ويصطنعون الأناة ويأخذون أنفسهم بالرفق ؟ ذلك شيء لا يوافق طبائعهم ولا يلائم غرائزهم ولا يتأتى لأمزجتهم.

وقد علمنا ارسطاطليس، منذ أربعة وعشرين قرنا، أن الاندفاع أخص خصائص الشباب، والخير كل الخير في أن يندفع الشباب، ولا يستأنوا، وفي أن يتحمسوا ولا يفتروا، وفي أن يغامروا ولا يحاذروا،

وفى أن يتعجلوا ولا يتمهلوا، بغير هذا لا تستقيم للناس حياتهم ولا تصلح لهم أمورهم. وقد أنبأنا بيريكليس منذ خمسة وعشرين قرنا بأن الشباب ربيع الحياة، ومتى رأيت الربيع يستأنى فى نشر جماله على الأرض ؟ ومتى رأيت الربيع يتمهل فى إشاعة الحياة والحرارة والنشاط فى الطبيعة ؟ ومتى رأيت زهر الربيع يتردد قبل أن يتفتح ؟ ومتى رأيت الأغصان الخضر تؤامر نفسها قبل أن تطاوع النسيم حين يريد أن يعابثها فتعابثه، وأن يميل بها فتميل معه حيث يميل ؟ إنما يقدم الربيع فجأة على رغم ما يوقت له من المواعيد، فى المراصد والتقاويم. تصبح ذات يوم أو تمسى ذات يوم، فإذا الحياة قد اندفعت فى هذه القطعة من الروض فملأتها قوة وفتوة ونموا، ونشرت عليها زينة وجمالا لم تكن تقدرهما قبل ذلك بأيام، بل قبل ذلك بساعات. كذلك الحياة كلها تندفع فى إبان الاندفاع وتستأنى فى إبان الإناة، ثم يسعى إليها الفتور أو تسعى هى إلى الفتور فيدركها الذواء الذى لا يبقى منها إلا ذماء يسيرا ثم يصيبها الذبول ثم يلم بها الحدث الأعظم الذى يجعلها هشيما تذروه الرياح. ونحن نرى ذلك كله يجرى على سجيته ويمضى على إذلاله، لا نستطيع أن نغير قوانينه ولا أن نقدم أو نؤخر شيئا منه عن موعده المقسوم له. ونحن نبتهج للربيع حين يقبل، ونكتئب للصيف حين يلم، ونبتئس للخريف حين ينثر من حولنا الأوراق، ونستخفى من الشتاء حين يملأ الجو والأرض من حولنا بردا تنكمش له النفوس وتقشعر له الأجسام، ولكنَّ ابتهاجنا واكتئابنا

وابتئاسنا واستخفاءنا لا يغير من مجرى الفصول شيئا. ولو استمع الصيف للربيع لما أقبل، ولو استمع الربيع للشتاء لما ملأ الأرض بهجة وجمالا. فدع الشباب وما يقولون، وامض أنت لما يسرت له حتى تضطرك الحياة إلى الهدوء ثم إلى الوقوف، ثم إلى السكون والهمود.

كما أنت أيها الصديق الكريم، لا تتحول عن طريقك فإن الحياة لم تحصر فى طريق واحدة ضيقة، وإنما انبسطت أمامها طرق لا تحصى، وهى قادرة على أن تسع الأحياء جميعا. والحياة العقلية خاصة أوسع جدا مما يظن المثقفون والمفكرون والمنتجون فى العلم والأدب والفن. وقد أفهم أن يقول حزب سياسى لحزب سياسى: تنح لى عن طريق الحكم وانزل عن مناصبه، فأنا أحق بها وأقدر على تدبيرها منك، ولكن الحكم ليس هو الحياة، وإنما هو فرع ضئيل جدا من فروع الحياة، ولعله أن يكون أشدها ضآلة وأهونها شأنا وأقلها خطرا، ولكن الشىء الذى لم أفهمه ولن أفهمه، لأن أحدا لم يستطع قط أن يفهمه، هو أن يقول جيل من المفكرين لجيل آخر من المفكرين: كفوا عقولكم عن التفكير والإنتاج لأستطيع أنا أن أفكر وأنتج، وأن يقول جيل من الفنانين لجيل من الفنانين: كفوا عيونكم عن أن ترى لأنها قد رأت ما يكفيها، وكفوا قلوبكم عن أن تشعر لأنها قد شعرت بما أطاقت أن تشعر به وكفوا ملكاتكم عن أن تنتج لأنها قد أنتجت ما وسعها الإنتاج، وأفسحوا لى حتى أستأثر من دونكم بإحساس الجمال والشعور

بدقائقه وتصويره، كما أستطيع أن أصوره أو كما أحب أن أصوره.
هذا شيء لم أفهمه قط ولن أفهمه آخر الدهر، فليس إلى فهمه من سبيل. فالكون وما فيه من حقائق ودقائق، ومن جمال وقبح، لم يخلق لجيل من الناس دون جيل، ولم يوقف على فريق منهم دون فريق، وهو لا يتحدث ولا ينبغي أن يتحدث إلى بيئة منهم دون بيئة، ولا أن يظهر روائعه للشيوخ من دون الشباب ولا للشباب من دون الشيوخ. وإنما هو يتحدث إلى من يريد أو إلى من يستطيع أن يسمع له ويفهم عنه، وهو يوحي إلى من يريد أو يستطيع أن يتلقى عنه الوحي. وهو يعرض جماله وقبحه لمن يريد أن يستطيع أن يرى الجمال فيقبل عليه ويدعو إليه، وأن يرى القبح فيصد عنه ويزهد فيه.

إنما الكون آية لمن كان له قلب.. أو ألقى السمع وهو شهيد. والله لم يخلق القلوب في صدور الشيوخ وحدهم، ولا في صدور الشباب وحدهم، ولم يجعل السمع في آذان هؤلاء من دون أولئك، أو أولئك من دون هؤلاء. وما أعرف شيئا يستطيع أن يسع الناس جميعا كهذه الأشياء التي تتصل بالعقول والقلوب، وما تنتج من آيات المعرفة والفن. والناس يزدحمون ويتدافعون بالأيدي والمناكب ويؤذي بعضهم بعضا بهذا الازدحام والتدافع حول مناصب الحكم ومصادر الرزق وموارد المال، فجائز أن يقول فريق منهم لفريق: دع لي مكانك وافسح لي الطريق، وجائز أن يكره فريق منهم فريقا على أن يدع له مكانه

ويفسح له الطريق، فأما العلم والأدب والفلسفة والفن فانها ميسرة لمن أرادها واستطاع السبيل إليها، وكان لها ميسرا، وبها موكلا، وعليها قادرا، فلا سبيل إلى الازدحام عليها ولا التدافع إليها بالأيدى والمناكب، لأنها تسع الناس جميعا.

وإذن فما قول الشباب للشيوخ افسحوا لنا الطريق إلى الأدب، أو أفسحوا لنا الطريق إلى العلم، أو افسحوا لنا الطريق إلى الفن ؟ فإن الشيوخ فيما أعلم لا يصدون الشباب عن أدب أو علم أو فن، وإنما يدعونهم إليه دعاء فيه كثير من الإلحاح. أليس من الممكن أن يكون الشيء الذى ينفسه الشباب على الشيوخ ليس هو الأدب أو العلم أو الفن، وإنما هو ما قد ينتجه الأدب والعلم والفن من إقبال الناس على الشيوخ أكثر مما يقبلون على الشباب ؟ وإذن فالأمر ينتهى إلى ازدحام حول أعراض الحياة الباطلة وأغراضها المادية الزهيدة، حول الشهرة وبعد الصيت، وما قد تتيح الشهرة وبعد الصيت من مال قليل أو كثير، حول غرور الدنيا وزخرف الحياة. فيالها من غاية هينة رخيصة لا ينبغى أن يكون حولها ازدحام، ولا أن يكون إليها تدافع، ولا أن تتقطع من أجلها الأعناق، ولا أن تتمزق فى سبيلها القلوب. ومن حق الشباب على الشيوخ أن يؤدبوهم بما ينبغى أن يؤدب المجربون به من لاحظ لهم من تجربة، وأن يعلموهم أن الشهرة لا تكتسب لأنك تريد اكتسابها. فإذا اكتسبت لذلك فليست هى إلا هباء، وأن المال

لا ينبغى أن يؤخذ بغير حقه، فإذا أخذ بغير حقه فذلك هو الغصب وما يشبه الغصب مما لا يليق بالرجل الكريم. وأن غرور الدنيا وزخرف الحياة باطل لا معنى للتهالك عليه ولا للتنافس فيه. إلا أن تفسد القلوب وتصغر النفوس وتقصر الهمم وتفتر العزائم. وإن الرجل الكريم خليق أن يعمل ويشق على نفسه بالعمل حين يصبح، وحين يمسى، وحين يضطرب مع الناس، وحين يخلو إلى نفسه، وحين يستسلم إلى النوم.

فالعمل وحده هو الذى يستطيع أن يرضى القلب الذكى، ويقنع النفس الكبيرة، ويزيد البصيرة نفوذا إلى نفوذ، والعزيمة مضاء إلى مضاء، وهنالك تسعى الشهرة إلى العاملين وهم أشد ما يكونون زهدا فيها وإعراضا عنها، ويسعى المال إلى العاملين وهم أشد ما يكونون ابتذالا له واستهزاء به. وما أقل ما يسعى المال إلى أصحاب الجد، وإنما المال موكل بقوم آخرين ليسوا من العمل ولا من الجد فى شىء، وليسوا من الأدب ولا من العلم ولا من الفلسفة ولا من الفن فى شىء، إلا قليلا من الذين يحققون القاعدة ولا يهدمونها.

نعم، ومن حق الشباب على الشيوخ أن يؤدبوهم بهذا الأدب اليسير الذى توارثته الأجيال وتناقلته العصور، وهو أن السلامة فى الأناة وأن الندامة فى العجلة، وأن الحياة أشبه شىء بالنهر يجرى ولكن إلى غاية ينتهى عندها حين يصب فى البحر العظيم فيصبح ماء من الماء،

وأن مياه هذا النهرقد أريد لهـا أن يجرى بعضها أمام بعض، لا يتأخر المتقـدم منهـا على المتأخـر، ولا يتقدم المتأخر منها علـى المتقدم، وإنما يجـرى بعضهـا إلى الغايـة فـي إثـر بعض. فالشـيوخ فـي طريقهم إلى الراحة الموقوتة أو الدائمة ليس فى ذلك شك، وليس عن ذلك محيص، والشـباب فى طريقهم إلى أن يأخذوا مكان الشـيوخ ليس من ذلك بد، وليـس عن ذلك متحـول، والذوق كل الذوق ألا يتعجـل الأبناء مصارع الآبـاء، فمصارعهـم محتومـة لا مفـر منهـا، والخير كل الخـير أن تقوم الصلات بين الأجيال على المودة والحب، وعلى التعاطف والبر، لا على هذا التنافس الذى يحفظ القلوب ويفسد الضمائر، ولا يغير من حقائق الحياة شيئا.

كمـا أنـت أيها الصديق الكريم، لا تقم إن كنـت قاعدا ولا تقعد إن كنـت قائمـا، ولا ترجع إلى الوراء، ولا تنحـرف إلى يمين أو إلى شمال، وإنما امض أمامك حازما عازما ثابت الخطو، والتفت بين حين وحين إلى الشباب مهديا إليهم ابتسام ثغرك، وإشراق وجهك، وعطف قلبك، وصفـاء نفسك، وأشـر إليهم بين حين وحـين: أن أسـرعوا ولا تبطئوا، فليس أشد خطرا على الشباب من التثاقل والإبطاء.

مصر بين النعيم والجحيم

أقام حيث أنت يا سيدى.. لا تبرح الأرض ولا تعبر البحر، فإن من ورائه فى مصر هولا هائلا، وشرا ماثلا، وبلاء نازلا، وعذابا أليما، وجحيما قد استقر فيها، لا تدرى أهبط عليها من أطباق الجو أم صعد إليها من أعماق الأرض. ولكنها أصبحت ذات نهار، أو أمست ذات ليل، فإذا هو قد اتخذ له فى قرية من قراها وكرا، لا يعرف متى اتخذه ولا كيف اتخذه، ولا من أين سعى إليه. ولكنه اتخذ فى تلك القرية ذلك الوكر على كل حال، ثم لم يلبث أن باض فيه وفرخ، ثم لم يلبث أن أرسل رسله المنكرة طلائع له فى القرية وما حولها، ثم أمد الطلائع بطلائع مثلها، ثم اتصلت الأمداد وجعلت تزحف فى الشرق والغرب وفى الشمال والجنوب، حتى غمرت مصر كلها بالنكر المنكر، والوباء المبير (المهلك).

وقد كان المصريون يقدرون فى سابق الأزمان وسالف العصر والأوان، كما يقول أصحاب الأقاصيص، أن الآخرة هى التى تقذف بالأشرار فى الجحيم وتمتع الأخيار بالنعيم. فقد استبان لهم فى هذه الأيام أن فى الدنيا جحيما ونعيما، ولكنهما لا يختاران أصحابهما وإنما يتخطفانهم تخطفا، ويستبقان إليهم استباقا. فجحيم الدنيا

هـذا الذى تصلاه مصر، لا يتخير الأشـرار وحدهم، وإنما يلقى شـباكه آنـاء الليـل والنهـار وهـو واثـق كل الثقـة بأنها لـن تعود إليـه فارغة ولا خفافـا، وإنمـا تعود إليه ملأى قد أثقلها الصيد، تصيب من تشـاء و مـن تصيبه مـن النـاس لا يعنيها ولا يعنـى ملقيها أن يكون صيدها خيرا أو شرا.

فأما نعيم الدنيا فأثر حذر متحفظ متحرج، لا ينتخب أصحابه بين أهل الخير وحدهم، ولا بين أهل الشر وحدهم. وليس هو من الخير والشر فى شـىء، وإنما هو نعيم مترف يحب القادرين على الترف، والمؤثرين لـه، والبالغين منه أقصى ما يستطيع النـاس أن يبلغوا. وهو من أجل ذلك مقل لا يحب الإكثار، مترفع لا يحب أن يتسفل إلى الدهماء ولا أن يمـس العامة بجناح من رفقه ولينه. وهـو لا ينتخب أصحابه من أهل المعرفـة ولا مـن أهل الجهـل، وليس هو مـن المعرفة والجهل فى شـىء وإنمـا يجذبـه المـال إليـه جذبا ويعطفـه الثراء عليـه عطفا. فهـو مولع بالمـال الكثـير والثـراء العريض، لا يحب الفقراء ولا يميل إلى أوسـاط النـاس، الذين يجدون فى شىء من الجهد والمشقة ما ينفقون. وإنما هو يؤثـر بالحب والبر والعطف، الذين لا يكيلون المـال كيلا وإنما يهيلونه هيـلا، ثم لا ينتخب أصحابه بين الذين أتيح لهـم ذكاء القلب وصفاء الطبع ونقـاء الذوق، وليس هو من هذه الخصال كلها فى شـىء، وإنما أصفيـاؤه وأخـلاؤه أولئك الذين قد كُثُر عليهم المـال حتى أثقلهم، وألح

عليهم الثراء حتى أسأمهم، فهم فى شغل بالمال والثراء حين يصبحون وحين يمسون، وحين يغدون وحين يروحون، لا يفرغون من العناية بالمال إلا ليعنوا بالترف، ولا يفرغون من العناية بالترف إلا ليعنوا بالمال. يحلمون بمال فى أول الليل، ويحلمون بالترف فى آخر الليل، وقد يحلمون بالترف حين ينشر الليل ظلمته على الأرض، وقد يحلمون بالمال حين يرسل الفجر ضياءه في الآفاق.

هؤلاء هم أصحاب النعيم يقيمون فى مصر الآن على كره منهم، لأن تدبير المال يضطرهم إلى أن يقيموا فى مصر. ولأن الاستمتاع بالترف كما يحبون أن يستمتعوا به قد لا يتاح لهم فى غير مصر. ولو قد استطاعوا أن يفارقوا مصر لاتخذوا لأنفسهم أجنحة يطيرون بها فى الهواء، ويقطعون بها أجواز الفضاء.. ولكن كيف السبيل إلى فراق مصر، وقد أبيح لأجنحة الطائرات أن تحمل الطائرات إلى كل مكان إلا مصر، وقد أبيح لحركات السفن أن تمخر البحار إلا إلى مصر، وقد حظر على الطائرات والسفن، إن ألمت بمصر، أن تحمل من أهلها أحدًا. فقد قضى على المصريين جميعا، من قدر منهم ومن عجز، من افتقر منهم ومن استغنى، أن يقروا فى بلادهم لا يبرحونها، حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولا.

أما أصحاب الجحيم.. وما أدراك ما أصحاب الجحيم، فهم الجائعون الضائعون، والبائسون اليائسون، والمأزومون المحرومون،

الذين لا يحفل بهم أحد ولا يحفلون بأنفسهم. وإنما عرفت الدنيا وعرفوا معها أنهم قد أرسلوا إلى الأرض، ليتجرعوا فيها الشقاء غصصا، وليصادقوا فيها الآلام منذ يقبلون على الحياة إلى أن يخرجوا من الحياة.

كانوا يعذبون في نار هادئة مطمئنة تشويهم في أناة، وتنضجهم على مهل، يبرح بهم الجوع، ولكنه لا يقتلهم، ويلح عليهم الحرمان ولكنه لا يفنيهم، وإنما يعلقهم بين الموت والحياة. فهم يغدون ويروحون، وهم يقولون ويعملون، وهم ينامون ويستيقظون، ولكنهم في هذا كله لا يغنون عن أنفسهم شيئا، ولا يكسبون لانفسهم خيرا، ولا يردون عن أنفسهم شرا، ولا يعصمون أنفسهم من مكروه.

واعجب إن شئت أن تعجب.. فقد يستحيل الجحيم إلى نعيم، كما يستحيل النعيم إلى جحيم. قد يلم الوباء فيلقى في هذه النار الهادئة المطمئنة من الوقود ما يذكيها ويؤججها، وإذا لهبها يتلظى، وإذا هي تنتشر في الأرض والجو فتحرق في غير حساب، وإذا الذين كانوا يشوون في تلك النار الهادئة، وينضجون على مهل، ويعلقون بين الموت والحياة. تتقطع الأسباب بينهم وبين الحياة في غير أناة ولا ريث، وتتصل الأسباب بينهم وبين الموت في غير تمهل ولا رفق. وإذا هم لا يعلقون في منزلة بين المنزلتين، وإنما يلقون إلى الموت إلقاء، ويتهافتون فيه تهافتا. فيخفف عليهم بذلك بعض ما كانوا يحملون

من أثقال ذلك العيش البغيض.

نعم، قد يرفق الله بأصحاب الجحيم في هذه الدنيا، فيرسل إليهم الموت مسرعا أو يرسلهم إلى الموت مسرعين لتتلقاهم رحمته من وراء الموت، فتجزيهم من بؤسهم في الدنيا نعيما في الآخرة، ومن شقائهم في الدنيا سعادة في الآخرة، ومن جحيمهم الضيق المهلك في الدنيا جنات واسعة، فيها من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. نعم وقد يحيل الله نعيم الدنيا إلى جحيم يمتحن به المترفين فيما ألفت قلوبهم من راحة آثمة، وفيما أحبت ضمائرهم من هدوء بغيض، فيشغلهم بالحياة عن الحياة، أو قل يشغلهم بالخوف على الحياة عن الحياة، أو قل يشغلهم بحب الحياة عن الحياة، فإذا هم مولهون مفزعون قد دخل الروع عليهم دورهم وقصورهم، فملأها ذعرا ورعبا، ثم اقتحم عليهم قلوبهم وضمائرهم، فملأها جزعا وهلعا وإشفاقا.. فهم لا يفكرون في المال ولا في الترف إذا استيقظوا، ولا يحلمون بالمال ولا بالترف إذا ناموا، وإنما يفكرون في الوباء أيقاظا، ويحلمون بالوباء نياما. كل همهم أن يفلتوا من الوباء ما وجدوا إلى الإفلات منه سبيلا. فهم من هذا الخوف المتصل الملح في جحيم، وهم في جحيم آخر لعله أن يكون شرا من جحيم الخوف، هم يجدون في ضمائرهم، بل في أعمق الأعماق من ضمائرهم، حسرة ضئيلة، ضئيلة ولكنها ملحة ممضة، مصدرها أصوات يأتيهم بها الجو من كل مكان،

حتى تأخذهم من جميع أقطارهم، وحتى لا تصل إلى نفوسهم من الآذان التى تصل منها الأصوات إلى النفوس فحسب، وإنما تصل إلى نفوسهم من كل طريق... تصل إلى نفوسهم من طريق العيون والأنوف وسائر الحواس. وكل هذه الأصوات تنبئهم بأنهم يعيشون فى جو من الحسد والبغض والحقد والحفيظة والموجدة، لا ينفقون درهما ولا دينارا إلا أحصاه عليهم من حولهم من الناس، ولا يستمتعون بلذة من اللذات إلا سجلها عليهم من حولهم من الناس، ولا يطعمون طعاما ولا يشربون شرابا ولا يتخذون ثوبا إلا تمنى الناس من حولهم لو أتيح لهم أن يشاركوهم فى بعض ما يطعمون ويشربون ويلبسون.

جحيم من الفقر والجهل والمرض والموت للكثرة الكثيرة من المصريين، وجحيم من الخوف والذعر والبغض والحسد للقلة القليلة من المصريين، وحياة تشبه الأعراف بين هذين الجحيمين، يحياها فريق من المصريين لم يبلغ بهم الفقر أن يبتئسوا، ولم يبلغ بهم الثراء أن يترفوا، فهم مذبذبون بين أولئك وهؤلاء من أصحاب الجحيمين.
هذه مصر التى سبقتك إليها منذ شهر وبعض شهر. فما تفكيرك فى العودة إليها، وما حنينك إلى أرضها وسمائها ونهرها.. إن أرضها تنبت الموت فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار، وإن نيلها يجرى بالبؤس والظمأ والجوع، وإن سماءها تمطر الوباء أمطارًا وتصبه صبا.
أقم حيث أنت يا سيدى.. لا تبرح الأرض ولا تعبر البحر، فإن من

وراثه فى مصر هولا هائلا، وشرا ماثلا، وبلاء نازلا، وعذابا أليما. إلا أن نكون من الذين لا يحبون الدعة حين تتاح لهم، ولا يحرصون على الأمن حين يساق إليهم، ولا يكرهون أن يلقوا بأنفسهم فى النار لعلهم أن يستنقذوا منها بعض الذين يحترقون وما أدراك من هؤلاء. إنما أنت ما علمت محب للدعة، لا تعدل بها شيئا، كلف بالترف، لا تنسى نصيبك منه مهما تكن الظروف، كاره للمشقة مهما تخف، مشفق من العناء مهما يكن يسيرا، محب للمال على علاته لا تزهد فى قليله ولا تسأم من كثيره..

فما تفكيرك فى العود إلى مصر وما حنينك إلى أرضها التى أصبحت دارا للجحيم.. لا تخدعك الأمانى ولا تضلك الآمال، ولا يستهويك قول الذين يقولون: إن الوباء موكل بالبائسين من دون الناعمين، كلف بالفقراء من دون الأغنياء فمن مأمنه يؤتى الحذر، ولم يستطع أحد إلى الآن أن يرسم للوباء ما ينبغى أن يسلك من طريق ولا أن يحرم على الوباء هذه السبيل أو تلك. فأقم حيث أنت.. فليس لك فى مصر أرب إن كانت لك حاجة إلى الأمن والدعة والسلامة. أم تراك مشتاقا إلى مجالسك تلك التى كنت تغشاها أيام الأمن حين كانت تنوب النوائب وتلم الخطوب، فتتحدث عما كان وتتنبأ بما سيكون، وتتندر بما قال هذا وفعل ذاك، وتتشغق مما كتبت هذه الصحيفة وتسخر مما كتبت تلك الصحيفة، وتنعم بهذه الحياة

الفارغـة التـى ينعـم بهـا المترفـون المتبطلون. هيهـات هيهـات... أقم حيث أنت يا سيدى إن كنت تريد العافية وتحرص على السلامة، فإن مجالسك تلك مازالت قائمة حافلة بما ألفت فيها من اللهو والتبطل والفراغ. ولكن من وراء ما تحفل به من هذا السخف خوفا يملأ القلوب ويفـرق النفـوس، وفيها مـن وراء هذا الخـوف تلك الحسـرة الضئيلة، التى اسـتقرت من الضمائر فى أعماقهـا، والتى تثيرها تلك الأصوات التـى تبلغ النفـوس من طريق الحواس كلها، فتنقل إليها أن فى مصـر جحيمـا من الوباء والمـوت والفقر والجهل والمـرض، وجحيما آخر من الحسد والحقد والبغض والموجدة.

أقـم حيث أنت.. لعلـك أن تأمن هذين الجحيمين، وإن اسـتطعت أن تمـد أسـباب الهـرب والنجاة لجماعـة من أمثالك فافعـل، فإنهم ليتمنون الهرب إن وجدوا إلى الهرب سبيلا. فإذا خمدت جذوة الوباء وانكسـرت حدة الشـر، فقد تسـتطيع أن تعود إلى مصر وأن تستأنف فيها حياة اللهو والتبطل والفراغ. فأما الآن فليس إلى شىء من ذلك سبيل.

الحرية أولا

تريد أن تنشئ الذوق الفنى المصفى فى نفوس الشباب المصريين ليحبوا الجمال ويذوقوه، ثم لِيُنْشِئُوا الجمال ويبتكروه ثم ليضيفوا إلى فنهم القديم فنا حديثا. ثم ليُشاركوا فى تنمية هذا الترف الفنى العالى الذى يجعل الإنسان إنسانا، ويحببوا الحياة إلى النفوس، ويجعلوا الدنيا شيئا ذا خطر على رغم ما يحيط بها من هذه الظروف البشعة، التى تجعلها أهون على الرجل الكريم من جناح بعوضة، لولا أن فيها أشياء تتصل بالذوق فتجعل لها قيمة وشأنا..

تُريد أن تُنشىء الذوق الفنى فى نفوس الشباب، ليستقبلوا الحياة راغبين فيها، محبين لها، مؤمنين بها، لا ليقنعوا بما تتيح لهم من إرضاء الغرائز، وقضاء المآرب القريبة، وتحقيق الآمال الوضيعة، بل ليتجاوزوا الحياة إلى ما هو أرفع منها شأنا، وأجل منها خطرا، وأسمى منها منزلا، وهو الاستمتاع والامتاع بهذه الثمرات الحلوة التى تجد فيها القلوب راحة، وتجد إليها النفوس رَوْحًا، والتى تسمو بالناس إلى حيث ينظرون إلى الحياة مزدرين لها، ساخرين منها، زاهدين فيها، بعد أن كانوا يحبونها أشد الحب، ويكلفون بها أعظم الكلف، لأنهم يرونها قد انتهت بهم إلى الغاية وبلغت بهم آخر الشوط، فلا عليهم من أن يتركوها

ولا عليهم من آن تتركهم، بعد أن أتاحت لهم أن يستمتعوا ويمتعوا لحظة قصيرة أو طويلة بهذا الجمال الذى لا تؤدى وصفه الألفاظ، وإنما تجد روعته القلوب فتنسى فى ذاته كل شىء...

ثم تريد أن تنشىء الذوق الفنى فى نفوس الشباب، ليعرفوا أنفسهم وليقدروا وجودهم وليلقوا من يلقون من الأوروبيين والأمريكيين، فيتاح لهم أن يتحدثوا إليهم ويسمعوا منهم، وأن يُفهموهم ما يريدون أن يقولوا، ويفهموا عنهم ما يقولون، لا يجدون فى ذلك مشقة ولا عناء، وإنما يجدون فيه راحة ومتاعا، ولا يشعرون فى أثناء ذلك بما يغض منهم فى أنفسهم، ويخيل إليهم أو يحقق لهم أنهم أقل من الأجنبى الأوروبى والأمريكى، علما بما يجب أن يعلم الناس، وشعورا بما يجب أن يشعر به الناس، وتقديرا لما يجب أن يقدره الناس...

تريد أن ننشىء الذوق الفنى فى نفوس الشباب لتبلغ بهم هذه المنازل كلها، ولتشعرهم بأن من حقهم أن يعتدوا بأنفسهم، ويعتزوا بقديمهم وحديثهم، ويطمحوا إلى ما يطمح إليه أترابهم من الشباب فى الأمم الراقية الأخرى، وهو أن يتلقوا عن آبائهم تراثا كريما وأن ينموه ويزيدوا فيه ويدفعوه إلى أبنائهم تراثا كريما لينموه ويزيدوا فيه. وأن يحققوا بذلك لوطنهم ما ينبغى أن يتحقق للوطن الكريم من هذه الحياة التى تنمو على مر الزمن وتربو على تعاقب الأيام، وأن يحققوا للإنسانية ما ينبغى أن يتحقق للإنسانية من هذا الرقى المتصل والسمو الممتاز.

تريد أن تنشيء الذوق الفني في نفوس الشباب، وأنا أيضا أريد أن أنشيء الذوق الفني في نفوس الشباب، لأني أعلم كما تعلم أن مهمتنا في الحياة إنما هي أن ننشئ الذوق الفني في نفوس الشباب... على هذه المهمة وقفنا جهودنا، وفي هذه المهمة أنفقنا حياتنا، ولهذه المهمة خصصنا ما بقي لنا من حياة. ولكنك تعلم كما أعلم أن شأننا في ذلك كشأن أبي العلاء حين تقطعت به الأسباب في بغداد، فقال هذا البيت الذي يراه النقاد قريبًا غاية القرب، وتراه أنت وأراه أنا بعيدًا غاية البعد:

فيا دارها بالكرخ إن مزارها قريبٌ ولكن دونَ ذلكَ أهوال

يرى النقاد أن أبا العلاء لم يزد على أن تغزل كما تغزل الشعراء من قبله ومن بعده، فذكر دار حبيبته وذكر المصاعب التي تقوم بينه وبين زيارتها، وترى أنت كما أرى أنا أن أبا العلاء لم يكن من الحب في شيء، وإنما رمز بدار حبيبته إلى مطامعه البعيدة وآماله النائية وإلى تلك العقبات التي تحول بينه وبين بلوغ المطالب وتحقيق الآمال.

فتنشئة الذوق الفني في نفوس الشباب يسير كل اليسر، ولكنه على ذلك عسير كل العسر، وهو قريب كل القرب ولكنه على ذلك بعيد كل البعد، وأي شيء أيسر وأقرب من أن تمنح الشباب ما ينبغي لهم من الحرية التي تتيح لهم أن يقبلوا، وأن يرفضوا، وأن يحبوا وأن يبغضوا، وأن يفعلوا وأن يتركوا، حين يريدون هم لا حين يريد

غيرهم، وغيرهم هذا كثير لا يكاد يحصى، منه التقليد الموروث الذى يفرض على الشباب أن يفكر ويعبر ويعمل ويشعر، كما تلقى ذلك عن أسرته وعن بيئته لا كما تريد نفسه، ولا كما يريد طبعه أن يفكر ويعبر ويشعر ويسير، ومنه التقليد الاجتماعى المكتسب الذى يفرض عليه أن يحيا كما يحيا الناس، ويحظر عليه أن ينفرد أو يشذ أو يأتى من الأمر ما يكره النظراء والأتراب. ومنه السلطان الذى يشرع القوانين، قاسية مرهقة مقيدة، ثم يصطنع فى انفاذها وسائل أشد منها قسوة وإرهاقًا وتقييدًا. حرر الشباب قبل كل شىء، ولو تحريرا موقوتا من هذه القيود كلها أو بعضها. دعهم يفكروا كما يريدون. دعهم يحيوا كما يريدون. وأرشدهم بالقدوة الصالحة والأسوة الحسنة والنصح الرفيق. وثق بأنك إن فعلت هذا أعددت نفوسهم للذوق الفنى الرفيع أحسن إعداد وأقومه. إنك لتعلم أن الفن حرية قبل كل شىء، حرية واسعة إلى أبعد غايات السعة، حرية فى نفس المنتج وحرية فى نفس المستهلك، كما يقول أصحاب الاقتصاد. خذ من شئت من المبدعين فى الفن واستقص حياته. فسترى أنه لم يبدع إلا لأنه شذ وانفرد وامتاز وخرج على ما ألف غيره من القيود. وليس كل الناس ميسرا للفن. وليس كل الناس قادرا على التفوق والابتكار. ولكن من حق الناس جميعا أن تهيأ لهم الفرص وتمد لهم أسباب التفوق والابتكار. وأول ما يجب لذلك أن يتاح للشباب، وللشباب خاصة، وما ينبغى لهم

من الحرية التى تفتح قلوبهم وعقولهم وضمائرهم لكل ما فى الحياة من خير وشر، ولكل ما فى الحياة من حسن وقبح، ولكل ما فى الحياة من حب وبغض، ليقبلوا عن اختيار لا عن اضطرار وليحبوا ويبغضوا عن رضا لا عن إكراه. فإذا لم تتح لهم هذه الحرية، فلا تبتغ منهم خيرا، ولا ترج منهم نفعا، ولا تنتظر لهم تفوقا ولا ابتكارا، وإنما انظر إليهم كما تنظر إلى الرقيق المسخرين، وإلى الحيوان الذى تدفعه غرائزه ويحد من حريته سلطان المستأنسين له المنتفعين به، فيما يحاولون من المآرب والأغراض. إن الفن حرية لا رق.. فإذا أردت من الشباب أن يذوقوا الفن ويسيغوه ويحاولوه ويبتكروه، فاجعلهم أحرارا. لأن الفن أثر من آثار الأحرار لا من آثار العبيد.

أى شىء أيسر من أن تجعل الشباب أحرارا.. إنك لتريد ذلك وإنى لأريده؟. ولكن أى شىء أعسر من أن تجعل الشباب أحرارا؟. إن التقاليد الموروثة، والتقاليد المستحدثة، وسلطان الحكومة، وسلطان الجماعة، وظروف الحياة، كلها فى هذا الوطن البائس، تأبى على الشباب أن يكونوا أحرارا.. فانشد معى إذن قول أبى العلاء:

فيا دارها بالكرخ إن مزارَها قريبٌ ولكن دونَ ذلكَ أهوال

والتمس من العزائم والطلاسم والتمائم ما يحميك ويحمينى من هذه التهمة الكبيرة الخطيرة، تهمة الميل إلى إفساد الشباب. وأى خطر على حياة الشباب فى بلد كمصر، أشد من أن تلتمس له هذه الحرية التى

يستمتع بها الشباب في غير مصر من البلاد التي ألفت الحرية، فلم تستطع أن تتسلى عنها ولا أن تزهد في ثمراتها الحلوة والمرة جميعا.

ثم لا تنس أنك لن تمنح الحرية للشباب حين تضع عنهم إصرهم والأغلال التي تثقلهم من التقليد والظروف، فقد ينبغي أن يعيش الإنسان قبل أن يكون حرا، وقد ينبغي أن يعصم الإنسان من الحرمان ليعيش... فحرر الشباب من البؤس والجوع وهمّ التفكير، فيما يقيم الأود، وحررهم من الجهل وأتح لهم علما وأدبا وثقافة، ويسر لهم بعد ذلك أن يعيشوا في جو سمح غير متحرج ولا متزمت، وخل بينهم وبين الدنيا وما فيها مما يسر ومما يسوء، مما يحسن ومما يقبح، مما يلذ ومما يؤلم، وثق بأنهم سيحسون ويشعرون، وثق بأنهم سيرضون ويسخطون، وثق بأنهم سينعمون ويبتئسون، وثق بأنهم سيستقبلون هذا كله بأنفسهم لا من طريق غيرهم، وثق بأنهم إن استقبلوا الحياة ولذاتها وآلامها وخطوبها وأحداثها، فسيصورون ما يستقبلون من ذلك وسيعبرون عنه وسيتأثرون به وسيؤثرون فيه، وسيكون كل واحد منهم إنسانًا حرا عاملا. وحيثما وجد الإنسان الحر العامل، وجد الذوق الفني ووجدت آثار الذوق الفني من الاستمتاع والإمتاع جميعا.

اذهب إلى الجامعة أشهدت الشباب الجامعيين حين يختلفون إلى الدروس ويستمعون إلى الأساتذة، وحين يتحدثون إلى أساتذتهم وحين يتحدث بعضهم إلى بعض؟. أرأيت في هذا كله شيئا يشبه

ما تعرف من شئون الشباب الجامعيين فى البلاد الأجنبية الراقية ؟ ألم تـر إلى تزمت الأستاذ حين يلقى الدرس وتزمت الطلاب حين يستمعون له ؟ الدرس عبء ثقيل على الاستاذ يتخفف منه بالقائه فى غير حب ولا كلف ولا ذوق. والاستماع عبء ثقيل على الطلاب يتخففون منه، بإحصاء الدقائق وانتظار الجرس الذى يرد إليهم ظلا من الحرية، ويخلى بينهم وبين الانطلاق إلى ما هم فيه من سخف الحديث، وفيما يتحدث البائسون فى أشياء لا تتصل بالثقافة من قريب أو بعيد، فى أشياء لا تتصل بالعلم ولا بالفن ولا بالذوق وإنما تتصل بصغائر الأمور وسفاسفها... تتصل باللذات القريبة والمنافع العاجلة، وقد تتصل بالسياسة فلا تمس إلا أدناها إلى السخف وأبعدها عن الغناء، تتصل بهذه اليوميات التى لا تقدم ولا تؤخر فى حياة الجماعات، فإذا تركوا الجامعة فإلى الجهود الضائعة والحياة الفارغة، إلى حرمان المحرومين، وشقاء الاشقياء، وصبر الصابرين على المكروه، ويأس اليائسين حتى من روح الله. فإذا أتيح لبعضهم شىء من اللهو وفضل من المتاع، فأنت تعلم حيث يلتزمون ذلك، وأنت تعلم ما يكون بين ذلك وبين الذوق الفنى المترف الرفيع من صلة، والخير كل الخير أن نطوى الحديث عنه طيا.

اذهب إلى مدرسة الفنون الجميلة أرأيت إلى النقش والحفر والتصوير وغيرها من الفنون، تُلْقَى الدروس فيها على الطلاب، كما

كانت تُلقى عليهم دروس النحو والحساب يدعوهم إليها الجرس، ويصرفهم عنها الجرس، ويشرف عليهم فى أثنائها وفيما بينها نظام دقيق قد رسمت له اللوائح وبينت له الحدود... فهم يسكنون بمقدار ويتحركون بمقدار وهم يسكتون بمقدار ويتكلمون بمقدار - مدرسة عسكرية لا أكثر ولا أقل. فكيف تريد للذوق الفنى المترف الرفيع أن ينشأ أو ينمو أو يمتاز فى هذه البيئات التى لم تخلق إلا لتقتل الذوق أو لتفسده على أقل تقدير؟ وأى شىء أيسر من أن ترد إلى هذه البيئات فى الجامعة، وفى مدرسة الفنون الجميلة، وفى معاهد التعليم كلها، شيئا من اليسر والإسماح ومن الدعة والحرية، لأنك تريد ذلك ولأنى أريده، ولكن هيهات... دون ذلك اللوائح والقوانين والأمن والنظام والخوف والإغراق فى الخوف. نفوس الشباب المصريين أشبه شىء بهذا العفريت الذى حبسه نبى الله سليمان فى قمقم مطبق من النحاس الصفيق، وختم عليه بخاتمه وأمر به فألقى فى أعماق البحر كما يحدثنا بذلك القاص فى ألف ليلة وليلة. وأجسام الشباب المصريين هى هذه القماقم المطبقة الصفيقة، إلا أنها ليست من نحاس وإنما هى من لحم ودم. والفرق بين هذه النفوس السجينة فى قماقمها وبين ذلك العفريت، هو أن العفريت وجد الصياد الذى استخرج قمقمه من أعماق البحر، وفض عنه خاتمه، ورفع عنه غطاءه، وأتاح للعفريت أن يحدث عهدا بالهواء والنور والحرية.

فإلى أن تجد نفوس الشباب المصريين هذا الصياد الذى يخرجها من قماقمها، ويرد إليها الحرية، ويخلى بينها وبين الهواء والنور والجمال، تستمتع به وتتمتع به الأجيال... إلى أن يوجد هذا الصياد تستطيع أن تتحدث عن الذوق المترف الرفيع، وعن تنشئة فى نفوس الشباب كما تشاء.

ويل الشجى من الخلى

عن أية عاطفة صدرت يا سيدى حين كتبت إلى كتابك هذا الذى تلقيته منذ أيام، فلم أدر ماذا أصنع به ولم أدر ماذا صنع بى ! فلو قد استجبتُ للعواطف الأولى التى أثارها فى نفسى، لمزقته تمزيقا، أو لحرقته تحريقا، أو لألقيته فى سلة المهملات - كما يقول الذين يتبذلون فى الحديث - ولكنى أكره أن أستجيب للعواطف حين تجيش، وللغضب حين يثور. فلم يثر فى نفسى إلا ما أثاره أثناء القراءة الأولى من الغضب والحفيظة والموجدة.

ويل الشجى من الخلى.. إنك لرجل ناعم البال، قرير العين، مطمئن القلب، هادئ النفس، مستريح الضمير. تكتب إلى قوم ليس لهم من هذا كله حظ قليل أو كثير. فهم مروعون مفزعون، قد شمل القلق نفوسهم، وملأ الحزن قلوبهم، وشاعت الكآبة فى ضمائرهم، حتى ضاقوا بالحياة وضاقت بهم الحياة. وشتان ما حال المقيمين فيما وراء البحر، تبتسم لهم الشمس المشرقة ويبتسمون لها، ويحنو عليهم الليل الهادئ ويطمئنون إليه، لا تشغلهم بين ذلك أحداث النهار ولا خواطر الليل، وإنما هم يستقبلون حياة رائقة شائقة، قد فرغوا فيها لأنفسهم وفرغت فيها أنفسهم لهم. فهم يمرحون ويفرحون ويسرحون

ويروحون.. قد أمنوا كل كيد، واعتصموا من كل مكروه.

ولست أزعم أن الحياة من حولك هادئة راضية وناعمة باسمة، فإن الهدوء والرضا والنعيم والابتسام أمور لا تتاح الآن لكثير من الشعوب. ولكنك تعيش غريبا فيما وراء البحر، قد بعدت عن وطنك فلم تشارك أهله فيما يجدون من البؤس والشقاء، ومن الخوف والإشفاق، ومن القلق والاضطراب. وبعدت عن مضيفيك لأنك غريب بينهم، لا تشاركهم في ألم ولا أمل، ولاتشاطرهم نعيما ولا شقاء. وإنما أنت قريب منهم بعيد عنهم، تنعم بما عندهم من نعيم، وتتجافى عما عندهم من بؤس وشقاء.

فأنت الرجل الحر الطليق، وأنت الرجل الموفق السعيد، يأتيك المال كثيرا موفورا من مصر، ويأتيك النعيم كثيرا موفورا من فرنسا، لأنك تقدر بالمال المصرى الذى لا يجده أكثر المصريين، على أن تحصل من النعيم الفرنسى ما لا يجده أكثر الفرنسيين. فأنت ناعم على رغم المصريين والفرنسيين جميعا. يستخرج لك المال المصرى من شقاء مواطنيك. ويستخرج لك النعيم الفرنسى من شقاء مضيفيك.. وأنت مع ذلك ساخط على ما يجرى هناك. تنكر المصريين لأنهم لم يبلغوا فى رقيهم المادى والعقلى ما بلغ الفرنسيون، ولأنهم لا يستطيعون أن يوفروا لك من وسائل الترف والدعة والأمن ما يوفره لك الفرنسيون.

وأنت من أجل ذلك تهجرهم وتهاجر من أرضهم، وتكتفى منهم بأن

يزرع الزارع، ويصنع الصانع، ويجوع الجائع، ويبتئس المبتئس، ويشقى الشقى، لتجتمع لك ألوف من الجنيهات تتبعها ألوف، ولتحول لك هذه المقادير الضخمة من المال، تنفقها فيما يحب الله وما لا يحب من وسائل الترف.. ومواطنوك فى شظف من وسائل الراحة والنعيم، ومواطنوك فى عناء وشقاء.

وتنكر الفرنسيين لأنهم لا يخضعون للسلطان كما يخضع له مواطنوك، ولا يستكينون للقوة كما تعودت أن ترى الناس يستكينون لها من حولك فى مصر، ولا يعبدون عجول الذهب كما تعودت أن ترى الناس يعبدون عجولا ذهبية كثيرة على ضفاف النيل، كما يقول جوت - إن أتاح لك الفراغ والعبث أن تقرأ ما قال جوت - ولكنك مع ذلك تسعى إلى فرنسا كلما أمكنتك الفرصة، وتقيم فيها ما طابت لك الإقامة. يكفيك من أهلها أن يأخذوا منك مالك الذى شقى المصريون ليرسلوه إليك، وأن يعطوك نعيمها الذى يشقى الفرنسيون ليتيحوه لك.

ولو طلب إليك أو أبيح لك أن تتمنى، وأن تعرب عما تتمنى، لتمنيت وطنا يجمع بين ما تحب من الرقى المادى والعقلى الذى تعجب به فى فرنسا، ومن خصال الخضوع للسلطان والاستكانة للقوة وعبادة المال التى تعجب بها فى مصر، ويبرأ من هذه الخصال التى تنكرها هنا وهناك، وطنا يلائم حبك لنفسك وإيثارك لها بالخير كل

الخير، وازورارك بها عن كل ما يكره أو يشق أو يسوء. ولكن أرح نفسك من هذا العناء، واعفها من هذه الأماني الكاذبة التي لن تتحقق، لأن تحقيقها شيء ليس إليه سبيل. فحيثما وجد الرقى العقلى والمادى الذى تحبه، وجد النزوع الذى تكرهه وتنكره إلى الحرية الحرة التى لا تبيح لأهلها خضوعا ولا استكانة ولا إذعانًا لسلطان المال. وحيثما وجد الانحطاط المادى والعقلى الذى تكرهه، وجد الإذعان والخضوع والاستكانة وعبادة المال والفناء فى الثراء، إلى غير ذلك من الخصال التى تعرفها وتألفها وترضاها من مواطنيك.

فأنت بين اثنتين يا سيدى ليس لهما ثالثة.. إما أن تعيش فى مصر كما نعيش، مواجها ما تنكر من الضعف والقصور والتقصير والانحطاط، محاولا كما نحاول إصلاح ذلك، وإما أن تعيش فى فرنسا مستمتعا بما يتوق إليه جسمك من هذا النعيم المادى الفارغ، وإلى ما قد يطمح إليه عقلك من هذا النعيم المعنوى الخصب، محتملا ما تعيب على الفرنسيين من طموحهم إلى الخير، ونزوعهم إلى الحرية، ومطالبتهم بالحق، والتجائهم أحيانا ما يغيظك ويحفظك من مظاهر التمرد والغلو فى الإضراب، وحرمانك بين حين وحين هذه اللذة أو تلك من لذات الجسم والعقل. فأنت ترى هذه اللذات حقا لك، لا ينبغى أن ترد عنه ولا أن تجد مشقة فى الظفر به، متى شئت وكيف شئت. والفرنسيون يرون مثل ما ترى، ولكنهم لا يؤثرونك أنت وأمثالك بهذا

الحق من دون عامتهم. وإنما يريدون أن يظفروا به كما تظفر به، وأن يحصلوا عليه كما تحصل عليه، متى شاءوا وكيف شاءوا، وألا يذودهم عنه ذائد من فقر أو جهل أو مرض، ومن ظلم أو بغى أو طغيان.

فاختر لنفسك يا سيدى - وقد اخترت فأحسنت الاختيار - فأنت لاتعيش فى مصر لأنها لم تبلغ من الرقى العقلى والمادى ما تحب. ولكنك تستغل مصر لأنها ترسل إليك المال الكثير الذى تشترى به النعيم الكثير. وأنت لا تعيش فى فرنسا لأن أهلها لا يخضعون ولا يخنعون ولا يقنعون. وإنما تقيم فيها إقامة الغريب تستمتع بخيراتها ولا تحمل مع أهلها شيئًا من التبعات. أنت تحيا على هامش مصر، ولكنك تستمد حياتك من صميمها. وأنت تحيا وتنعم على هامش فرنسا، ولكنك تستمد حياتك ونعيمك من صميمها. يشقى المصريون والفرنسيون جميعًا لتحيا أنت وتنعم بالحياة، ثم لا يجد أولئك ولا هؤلاء منك معونة حين تنزل بهم النوازل، أو تلم بهم الخطوب. لأنك قد تركت مصر بجسمك وعقلك جميعًا، وتركت فرنسا بجسمك وعقلك جميعًا أيضًا، وإن أقمت فيها وأطلت الإقامة لأن إقامة الغريب فى وطن لا تحمله من تبعات المواطنين شيئًا.

لقد اخترت يا سيدى فأحسنت الاختيار فيما ترى.. عشت على هامش الوطَنَيْنِ، واستمددت حياتك وسعادتك من صميم الوطنَين. ورضيت لنفسك هذه المنزلة، منزلة الطفيلى الذى ليس هو من أولئك

ولا هـؤلاء، ولكنـه علـى ذلـك يسـتغل جهـد أولئـك وهـؤلاء. وليس كل الناس قادرين على أن يرضوا لأنفسـهم ما رضيت لنفسك. وليس كل الناس يسـتطيعون أن يكونوا على هامـش الحياة فى أوطانهم أو فى مهاجرهم. فانعم إن شـئت بحياتك هذه التى آثرت بها نفسك، ولكن لا تنكر على غيرك من الناس أن يعيشوا كما يحبون. وانظر إلى الحياة إن شـئت علـى أنهـا متاع عابـث، أو عبث ممتـع. ولكـن لا تنكر على غـيرك من الناس أن ينظـروا إلى الحياة على أنها جـد وكد، واحتمال للأثقـال، ونهوض بالأعباء، ومحاولة للنفع، وسـعى إلى الخير، وجهاد فى سبيل الإصلاح.

أفهمـت الآن لـماذا تلقيت كتابك، فهممـت أن أمزقـه أو أحرقـه أو أهمله ؟ غاظنى ما فيه من سخر بمصر لأنك لا تستطيع أن تجد فيها الفنادق التى تجدها فى فرنسا، ولا تستطيع أن تجد فيها الملاهى التى تختلـف إليهـا فى فرنسا، ولا تسـتطيع أن تزور فيهـا المتاحف الفنية الرائعة الكثيرة التى تزورها فى فرنسـا، ولا تسـتطيع أن تنعم بها بمثل ما تنعم به فى فرنسا من ضروب اللهو وألوان المجون وفنون النعيم.

وغاظنى سـخطك على فرنسا لأن العمال يضربـون فيها فيكثرون الإضـراب، ويضيعـون عليـك مـن لذاتـك المباحـة والمحظـورة ما أنت حريـص على تحصيله، ولأن الأحزاب تختلف فتسـرف فى الاختلاف وتختصـم فتغلـو فى الخصومة. وينشـأ عن ذلك ما ينشـأ من الإضراب

والاضطراب والمظاهرات، وتردد الفرنك بين الرفعة والضعة وبين الغلاء والرخص. ويؤثر ذلك كله فى حياتك المادية بما يحدث فيها من العسر، وفى حياتك العقلية والشعورية بما يحدث فيها من الخوف والشك والقلق.

ولكن ما رَأْيُك فى أن مصر فى حاجة إليك وإلى أمثالك ليستنقذوها من ضعفها، وليبلغوا بها هذا الرقى الذى تحبه وتتمناه.. فعد إليها واعمل فيها واعمل لها، وامنحها وقتك وجهدك ومالك إن استطعت، ولكنك لن تستطيع.. فدعها إذن وما هى فيه، ودع أهلها وما هم فيه، إنك لا تستطيع أن تمنحهم معونة ولا حولا ولا قوة، تحول الأثرة بينك وبين ذلك . . فأرحها منك وأرح نفسك منها. خذ ما ترسله إليك من المال، ولا ترسل إليها مكانه سخرية واستهزاء.

وما رأيك فى أن فرنسا لم تخلق لك ولا لأمثالك من الطارئين النازحين الذين يأكلون وينكرون وينعمون ويعيبون. وإنما خلقت لنفسها وأهلها قبل أن تخلق لغيرها من البلاد، وقبل أن تخلق لغير أهلها من الناس. فخذ منها ما تقدم إليك من ضروب اللهو والمتاع، وأد إليها ثمن هذا كله من المال الذى ترسله إليك مصر، وارض عن نفسك وانكر على فرنسا إن شئت، ولكن اخف انكارك واجعله شيئًا بينك وبين ضميرك ولا تتحدث به إلى الفرنسيين، ولو قد فعلت لألقوك فى غيابات السجن إلقاء، أو لنفوك من الأرض نفيا. لا تتحدث إلى، فأنى لا أحب الذين يأكلون وينكرون وينعمون ويسخطون. وإنى بعد

هذا كله أعجب أشد الاعجاب وأقواه بما أجد فى الفرنسيين من هذا النزوع إلى الحرية والطموح إلى الكمال والتوثب إلى الخير.

ويل الشجى من الخلى، وويل العاملين من الكسالى، وويل الجاهدين من القاعدين.

أرح نفسك من الناس وأرح الناس منك، وافرغ لحياتك الفارغة. وإذا لم تجد بدا من الكتابة إلى، فاكتب إلى بما يرضينى ولا يؤذينى، فإنى لست منك ولا من حياتك الفارغة فى شىء.. وأنا أهدى إليك مع ذلك تحية فيها من الرثاء لك أكثر مما فيها من السخر منك.

لا ونعم

إن شئت حدثتك بما يرضيك، فللصديق عند صديقه كل ما يحب. وإن شئت حدثتك بما يؤذيك، فللصديق عند صديقه بعض ما يكره. والناس يخطئون حين يظنون أن الصديق لا ينبغي أن يلقى من صديقه دائما إلا ما يسره ويحبره. فالصداقة نصح وليس النصح حلوا دائما. وما أرى إلا أن الصداقة أشبه شيء بالفلسفة، في رأى أفلاطون.. لا تخلص للحلاوة الحلوة، ولا تخلص للمرارة المرة. وإنما هي شيء بين ذلك بحلو وبمر، ولعله بحلو وبمر في وقت واحد.

فلك عندي إذن ما يسرك، ولك عندي إذن بعض ما يسوءك. ولقد رضيت عنك أمس كل الرضا في أول الضحى، وسخطت عليك أمس كل السخط حين أوشك النهار أن ينتصف. ولقد هممت أن أطوى عنك ما أرضاني وما أسخطني جملة، أو أن أطوى عنك ما أرضاني وما أسخطني حتى ألقاك. فنستأنف ما تعودنا أن نستأنف من الحديث الحر السمح كلما التقينا. ولكني أشفقت إن لقيتك ألا أصارحك بما في نفسي من لوم لك ووجد عليك.. فأنت رجل حلو المحضر، عذب الحديث. خلاب جذاب، ماهر الجد، حلو الدعابة، تشغل محدثيك بمحاسنك الكثيرة عن عيوبك القليلة، وتلهيهم بالاستماع لك

والإعجاب بك عن التحدث إليك، فكيف بالعتب عليك. ولقد سألت نفسي وأطلت سؤالها، وتستطيع أنت أن تسأل نفسك وتطيل سؤالها. فما رأيت - وما أحسبك سترى - أني واجهتك قط. بملامة أو عتاب. إنما أواجهك دائما بالثناء والتقريظ وبالإكبار والإعجاب.. فإن أنكرت منك شيئا طويت عنك إنكارى فى أكثر الأحيان، وكتبت إليك ببعضه فى أقل الأحيان.

فخذ كتابى هذا على أنه من الكتب القليلة التى أرسلها إليك. فلا تكاد تتلقاها حتى تعلم أنها تحمل إليك لوما أو عتبا أو نكيرا أو دعابة لا تخلو من مرارة مرة. وقد أنبأتنى بأنك تتلقى هذه الكتب فتضيق بها أول الأمر وتتثاقل عن قراءتها، ولكنك على ذلك تضعها منك غير بعيد، وتختلس إليها نظرات فيها الرغبة وفيها الرهبة، فيها الطمع وفيها الخوف، وتمد إليها يدا تقدم لتحجم، وتنبسط لتقبض، ثم تندفع مغامرة فتفض الغلاف فى عنف يكاد يفسد ما وراءه، ثم تلتهم عينك ما فى الكتاب التهاما. فاصنع بهذه الرسالة ما تعودت أن تصنع بأمثالها أو تعجل قراءتها، فأنت وما تريد من ذلك. ولكنى واثق بأنك ستجد فيها إخاء الأخ العطوف، ووفاء الصديق الحميم. ومهما تثقل عليك قراءتها الأولى، فستخف عليك قراءتها الثانية، لأنى أعلم أنك ستقرؤها مرتين. ولعلك أن تقرأها أكثر من مرتين. لقد كنت

رائعا أمس فى أول الضحى مروعا فى آخره.

***

كنت رائعا حين كنت تتحدث إلينا عما امتازت به نفس غاندى من العزة السمحة والإباء الوديع، وحين كنت تحدثنا بأن جمال الحرية، وجلال الكرامة، وروعة العزة والإباء، خصال يظهرها اللين أكثر مما يظهرها العنف، ويجليها الأمن أكثر مما يجليها الخوف، لأنها لا تستكمل خصائصها إلا حين تظهر متحضرة مترفة مجلوة من كدر الغرائز ووضر (وسخ) الطبائع الغلاظ

والعنف يخرج الإنسان عن طوره، ويرده حيوانا لم تهذبه الحضارة، ولم يصفِّ طبعه أدب أو فن، ولم ينقِّ ضميره علم أو فلسفة أو دين. فحرية الإنسان العنيف فى أوقات السلم والحرب ليست من الحرية الصحيحة فى شىء. وإنما هى الغرائز المندفعة والطبائع الجامحة والثورة المدمرة التى لا تبقى على شىء، وليس يعنيها أن تبقى على شىء، لأنها لا تصدر عن قلب ذكى، ولا عن ضمير نقى، ولا عن عقل رفيع نفاذ. إنما هى شىء يشبه عصف الريح، وقصف الرعد، وهياج البركان. فأما الحرية الحرة حقا، الحرية الخصبة المنتجة، الحرية الرائعة التى لا تكاد تظهر حتى تملأ القلوب شعورا والنفوس نورا، فهى هذه الحرية المُرَوِّية المستبصرة التى تتأثر بالتفكير والذكاء حتى كأنها هى التفكير والذكاء. وكنت تحدثنا بأن الإنسان الكامل

فـى حريتـه وعزته وإبائه، يمكـن أن يختصر كله على ما فيه من عسـر وتركيـب وتعقيد فى كلمة واحدة قصيرة يسيرة، ولكنها على ذلك شاملة خطيرة، وهى كلمة « لا » .

وكنـت تقـول: إن كلمـة « لا » هـذه كنـز لا يفنـى، وليـس إلى فنائه سـبيل، لأن مـا حـول الإنسـان مـن ضـروب الترغيـب وألـوان الإغراء والدعاء ما لا سـبيل إلى احصائه، ولأن ما يلائم عزته وكرامته من هذا كله أقل من القليل. فالإنسـان الحر الكريم هو الذى يستطيع أن يقول بقلبـه وضمـيره وعقله ولسـانه: « لا » .. يقولهـا لكل ما يدعـوه أو يغريه أو يرغبه فيما لا يلائمه من عمل أو قول أو سيرة أو تأثر أو تأثير. يقولها حـين تدعـوه المائـدة إلى أن يـأكل أكثر ممـا ينبغى، أو إلى أن يشـرب أكثـر مـن طوقه، ويقولها حين يدعوه الجمـال إلى فتنة الحس، ويقولها حـين تدعوه القـوة إلى الطغيـان والبطش والظلم، ويقولهـا حين يدعوه الضعـف إلى الاسـتكانة والإذعـان والـذل، ويقولهـا حين يدعـوه الثراء إلى الطمـع والجشـع والبخل، ويقولهـا حين يدعوه الإعدام إلى السـؤال والإلحـاف والسـرقة والمكـر، يقولهـا حين يدعـوه السلطان والجاه إلى الاثرة والاسـتئثـار والمحاباة، ويقولها حين يدعـوه التفوق والامتياز إلى الاسـتكبار والغرور. وكنا نسـتمع لك معجبين بك، وقد اتصلت عقولنا بعقلك، وقلوبنا بقلبك، وتعلقت نفوسنا بشفتيك. وما أرى إلا أنك قد أخذت ترضى عن نفسك وتعجب بها، حتى بلغت من قراءة رسالتى

إلى هذا الموضع، ففيك شيء من الضعف للثناء عليه، يدعوك إلى شيء من العجب والتيه حين تحس الإعجاب بك والرضا عنك.

وما أرى إلا أنك قد وضعت الكتاب حين بلغت منه هذه الجملة، فاستأنيت شيئا، ومددت بصرك أمامك، كأنك ذاهل بعض الذهول. ثم انحرفت إلى يمين، فألقيت نظرة سريعة خاطفة على هذه المرآة التي تقوم غير بعيد من سريرك.. فأنت تقرأ كتابي هذا في غرفة نومك، لأنك لا تخرج منها إلا بعد أن تفرغ من الصحف، وتقرأ ما يحمل إليك البريد. ثم أنت تعود إلى الكتاب فتقرؤه من أوله، تريد أن تتذوق ما فيه من ثناء عليك وتقريظ لك، كأنك تجد في هذه القراءة المعادة، أو كأنك تستمد من هذه القراءة المعادة، شجاعة تعينك على المضي في الكتاب إلى آخره، وعلى استقبال ما ينتظرك فيه من ملامة وعتاب.

كنت إذن تحدثنا، فتروعنا بألفاظك العذبة، ومعانيك الساحرة، وفطنتك البارعة، وعقلك النافذ إلى أعماق الحياة. ولكن التليفون يدعوك، فلا تكاد تستجيب لمن يتحدث إليك من أقصى الخيط حتى يضعف صوتك بعد قوة، ويلين بعد شدة، ويتهالك بعد امتناع وإباء. وقد عرفنا مما سمعنا من كان يتحدث إليك من أقصى الخيط، فكدنا ننكر ولكنا لم نفعل، وإنما أحسنا بك الظن، وقدرنا أنه حسن العشرة وجمال الأدب ورقة الحاشية وترف الذوق. ومضيت في حديثك عن كلمة « لا » هذه، تبين لنا تصويرها لحرية الفرد، وتبين لنا تصويرها

لحرية الجماعة، وتبين لنا تصويرها لحرية الشعب، وتوازن بينها وبين كلمة .نعم حين تكثر منها نفس الفرد ولسانه، فيتورط فى الموبقات التى تضنيه، وحين تكثر منها نفوس الجماعات وألسنتها فتتعرض للذلة والهوان، وحين تكثر منها سيرة الشعب فيتعرض للظلم والاستبداد، وحين تكثر منها سيرة الحكومات فتتعرض للعدوان والاستعمار.

وأنت تضرب لهذا كله الأمثال من حياة المصريين، ومن حياة غير المصريين، فيما كان من أمرهم، وفيما هو كائن. وأنت تتمنى علينا أن نعلم المصريين كلمة « لا » وأن نذيعها فى بيئاتهم مهما تختلف، وفى طبقاتهم مهما تتفاوت لعلهم أن يجمعوا عليها فتسلم لهم حريتهم وكرامتهم، ولعل حكومتهم أن تؤمن بها، وتنطق بها، وتصر عليها، فتسلم لمصر سيادتها واستقلالها.

ولكن حاجبك يقبل فينبئك بمقدم الوزير. وإذا أنت تَخِفُّ فى غير أناة، وتسرع فى غير وقار. وينظر جلساؤك إليك مسرعين. ثم ينظر بعضهم إلى بعض متباطئين متسائلين. ثم تثور فى نفوسهم وقلوبهم خواطر متباينة وعواطف متناقضة لست فى حاجة إلى أن أجلوها لك أو أعرضها عليك. فقد قلد أكثرهم سيرتك. فخف فى غير أناة وأسرع فى غير وقار. وإذا أنتم جميعا تهرعون لاستقبال الوزير. وصدق أقلهم مقالتك فتمهل واستأنى ولبث فى مكانه. حتى إذا أقبل الوزير قام

فـى أدب، وتلقى تحيته فى احتشـام،، وردها إليه فى ظرف، وعاد إلى مجلسه فى وقار

وأنـت تذكـر بعـد ذلـك مـا كان من سـيرتك وسـيرة جلسـائك مع الوزير، وما كان من سيرة الوزير معك ومع جلسائك، منذ أقبل إلى أن انصـرف. وأنت تذكر ما كان من خفتكم لتشـييعه فـى غير أناة، ومن إسراعكم إلى مرافقته فى غير وقار، ومن عودتكم بعد ذلك وعلى ثغوركم ابتسام خير منه العبوس، وفى وجوهكم إشراق خير منه الإظلام. ولكنّ فى ألسـنتكم انعقادا أفصح من الكلام، لأن قلوبكم كانت مسـتحيية، ولأن ضمـائركم كانـت مسـتخذية، ولأن غشـاء رقيقا مع الكآبة الفاترة كان يقـوم دون عقولكـم، فيمنع نورهـا أن ينفذ إلى خـارج، ويمنع نور الحيـاة والحريـة أن ينفـذ إليها. والحمـد لله على أن قلوبكـم مازالت شـاعرة تجـد الحياء، وعلى أن ضمائركم مـازالـت نقية يظهر فيها كدر الاستخذاء، وعلى أن عقولكم مازالت صافية تغشاها الكآبة بين وقت ووقـت، حين ترى مالا يجمل بكرام النـاس. فليس يجمل بكرام الناس أن يحبـوا كلمـة « لا » إذا خلـوا إلى أنفسـهم وأن يقولوا .نعـم. إذا لقوا أصحـاب الجـاه والسلطان. وليـس يجمل بكـرام النـاس أن يتحدثوا حديث الأحرار ويسـيروا سـيرة العبيـد، وليس يجمل بكـرام الناس أن يناقضـوا إلى هذا الحد بـين ما يعتقدون فى دخائل نفوسـهم وأعماق ضمـائرهـم، وبـين ما يظهرون من سـيرتهم حين يعاشـرون أمثالهم من

الناس. فالوزير يا سيدي رجل مثلك مهما يكن حظه من القوة والسلطان. ومهما يكن حظه من الذكاء والحذق، ومهما يكن حظه من التفوق والنبوغ... هو رجل مثلك، خلق من تراب وسيعود إلى تراب، يأكل كما تأكل، ويشرب كما تشرب، وينام كما تنام، ويستيقظ كما تستيقظ، ويسعى بين الناس كما تسعى أنت بين الناس، ويخلو إلى نفسه كما تخلو إلى نفسك... فحقه عليك كحقك عليه، لا ينبغى أن ينقص ولا ينبغى أن يزيد.

أستغفر الله، بل حقه عليك أقل جدا من حقك عليه، لأنك قد نصبته لخدمتك، وكلفته النهوض ببعض أمرك وأجرته على ذلك أجرا يقبضه في كل شهر، حين يأخذ مرتبه هذا الضئيل ويقبضه فى كل يوم وفى كل ساعة وفى كل لحظة، يستمتع بما تحيطه به الدولة من مظاهر السلطان والجاه.

أما هو فلم ينصبك لشىء، ولم يكلفك شيئا، ولم يأجرك على شىء، وليس له عندك إلا ما للإنسان عند الإنسان من الرفق الرفيق، والمعاملة الكريمة، والأدب الجميل. ولعمرى لئن عجزت عن أن تمسك على نفسك إباءها أمام وزير، أنت شاركت فى جعله وزيرا، لتعجزن أشد العجز وأشنعه حين تغريك المغريات، وتُخيفك المخوّفات.. وما أكثر ما فى حياة الناس، وفى حياة أمثالك خاصة، مما يغرى ويخيف. وعزيز على أيها الصديق الكريم أن أسوءك بقول أو فعل،

ولكن الصداقة نصيحة قبل كل شيء، ولم ينصح لك من أبدى لك ما يسرك، وأخفى عليك ما يسوءك.

فاستقبل أمرك ذكيا نقيا أبيا، واجتهد في أن ترى نفسك كما أراها، فتعرف منها مثل ما أعرف، وتنكر منها مثل ما أنكر. وإذا تعلقت على بما تنكر من أمري، فافرض على نفسك من النصح لي والعنف بي، مثل ما أفرض على نفسي في ذاتك.

وأذكر أن قوما كانوا في الدهر يصنعون الأصنام ليعبدوها، وأن الزمن قد تقدم وتقدم وأصبح مما لا يلائم كرامة الناس أن يصنعوا الوزراء ليقدموا إليهم الطاعة والخضوع.

صحائف الأنباء

في أي أنبـاء مصر تريد أن أكتب إليـك أيها الصديق الكريم ؟ فيمـا يرضيك ويلهيك، أم بما يؤذيك ويضنيك.. فعندي وعند كل مصري من هذه وتلك أطرافـ. أمرنا في ذلك كأمر غيرنا من الناس في غير مصر من البلاد. فعند كل إنسـان مهما يكن، ومهما يكن بلده، أنباء تسر وتلهي وأنباء أخرى تسوء وتؤذي، لأن حياة الناس كلهم في عصورهـم كلهـا وفي أوطانهم كلها مزاج مـن الجد والعبث، ومن الخير والشر، ومن اللذة والألم، ومن الحزن والسرور.

فـي أي أنباء مصر تريـد أن أكتب إليك إذن ؟ أما إن كنت راضي العيـش، نـاعـم البـال، مطمئن القلـب، فقد ينبغي أن أكتـب إليك في أنباء مصر التي تحزن بعض الحزن، وتنغص بعض التنغيص، ليعادل ما تحمل إليك من المساءة بعض ما أنت فيه من المسرة. وأما إن كنت ضيـق النفـس، كئيـب الضمير، محـزون القلب، فقد ينبغـي أن أكتب إليـك فيمـا يسليك ويلهيك، لتجـد فيما يلقاك من ذلـك راحة تخفف ما أنت فيه من حزن، ورضا يردك إلى ما ينبغي لك من اعتدال المزاج.. ولكن لا أعرفـ من أمرك شـيئا. وقد انقطعت رسـائلك عني منذ شهر وبعـض شـهر، ورسـائلك لا تنقطـع إلا حين تشـغلك السـعادة أو حين

يشغلك الشقاء. فأنت رجل تؤثر نفسك بما يتاح لك من الخير وبما يعرض لك من الشر، ولا تفكر فى أصدقائك ولا تكتب إليهم إلا حين تفرغ من السعادة والشقاء جميعا، وتضطر إلى هذه الحياة الهادئة التى تضيق بها وتضيق بك، فتتسلى عنها وتسليها عنك بالتفكير فى الأصدقاء والسعى إلى لقائهم إن كانوا قريبا منك، والكتابة إليهم إن نأت بهم عنك الدار.

فأنت فى هذه الأسابيع الكثيرة التى لم تصل إلى فيها رسائلك، مشغول عنى وعن غيرى بنعمة سيقت إليك أو نقمة صبت عليك. وأنا من أجل ذلك حائر فى امرك وأمرى، أخشى أن تكون سعيدا فيشغلك كتابى عن سعادتك، وأخشى أن تكون شقيا فيكون فى تأخير الكتابة إليك شىء من التقصير فى ذاتك والتفريط فيما ينبغى لك من الحق على، إن نابتك النوائب أو ألمت بك الملمات. وما أكره أن تستأثر بما يتاح لك من الخير لأنى أحبك، وما أريد أن تستأثر بما يعرض لك من الشر لأنى أشفق عليك. فخذ كتابى إذن كما هو وانظر فى أوله. فإن كنت سعيدا فدعه حتى تفرغ من سعادتك أو تفرغ منك سعادتك. فليس من هذا بد، لأن سعادة الناس فى هذه الحياة سحابة صيف لا تظل إلا لتنقشع ولا تلم إلا لتزول. وإن كنت شقيا فاستعن به على دفع ما يغشاك من الشقاء.

***

وفـى أنبـاء مصـر والحمد لله ما يسلى المحزون عـن حزنه، وينغص على السـعيد سـعادته، ويدعو الرجل العاقل الأريـب إلى إطالة التروية والإمعان فى التفكير.

لقـد بعد عهـدك بمصر أيها الصديـق الكريم، وطـال فراقك لها، وقد جدت فيها أمور وحدثت فيها أحداث، غير تلك الأمور وهذه الأحداث التـى تنقلهـا إليك الصحـف التـى تصدر حيـث تقيـم والتـى تأتيك مـن حيـث نقيـم نحـن، لأن الصحـف لا تنقل مـن الأحـداث والأنباء إلا ظواهرها. فأما حقائقها ودقائقها وأسـرارها ومصادرها، فليسـت مـن الصحف فى شـىء، وليسـت الصحف منهـا فى شـىء. وما أكثر الأنبـاء التى تروى فى الصحف قـد رواها الكتاب عن غير فهم، وقرأها القـراء عـن غير فهم أيضا، وتحـدث بها المتحدثون وذهبـوا فى تأويلها المذاهـب عن غير فهم كذلـك، لأنهم عرفوا ظواهرهـا وجهلوا حقائقها، ولأن الصحفيـين لا يكتبـون التاريـخ، تعجلهـم عن ذلـك مهنتهم التى تضطرهـم إلى الإسـراع، وإلى النظـام، وإلى أن يملئـوا صحفـا بعينهـا فـى أوقـات بعينهـا، لا أن يسـبقوها ولا ينبغى أن يتأخـروا عنها. فهم معجلـون مهمـا يتمهلوا، وهم مسـرعون مهما يسـتأنوا، وهم مقصرون مهما يتكلفوا من البحث والاستقصاء.

وقـد قرأت فـى الصحف ونقل إليك الناقلون من غير شـك أن فى مصر نظاما مبتكرا لا يعرفه بلد من بلاد الأرض. وهو توكيل الشـرطة

بالجامعات ومعاهد العلم تحرسها حين يسفر الصبح، وتحرسها حين يظلم الليل، وتحرسها بين ذلك حين تستوى الشمس فى كبد السماء، وحين يبسط الظلام سلطانه الرهيب على الكون. وزعم لك بعض الصحف، وقال لك بعض القائلين، إن هذا النظام المبتكر البديع قد أريد به إلى حصار الجامعات ومعاهد العلم، حتى لا ينفذ إليها أحد من غير أهلها، مخافة أن يشغل الجاهلون طلاب العلم عن علمهم. وزعمت لك صحف أخرى، وقال لك قائلون آخرون، إن هذا النظام المبتكر البديع إنما أريد به إلى حماية الجاهلين الغافلين من المتعلمين المتنبهين، مخافة أن ينتشر الجامعيون والمثقفون فى الأرض ليملئوها شرا بعد أن ملئت خيرا. وقال لك أولئك وهؤلاء إن فى هذا النظام المبتكر البديع عبثا بالحرية وتضييقا على الناس فى حياتهم، فبين الجامعيين والمتعلمين وبين الجاهلين والغافلين صلات يجب أن ترعى وعرى يجب ألا تنفصم، صلات الأبوة والبنوة والإخاء، وصلات الرحم والقرابة والمودة. وكل هذه خصال لا ينبغى أن تقطع لأن الله أمر بها أن توصل، فهذا النظام شر، وهذا النظام نكر، وهذا النظام بغيض إلى آخر ما قيل وإلى آخر ما سيقال، مادام هذا النظام المبتكر البديع قائما، وما دام الصحفيون يكتبون عن غير استقصاء، ومادام الناس يقولون بغير علم، ويخوضون فيما لا يحسنون الخوض فيه، ودعنى أستعر

من أبي العلاء بيته المشهور:

غدوت مريض العقل والدين فالقني

لتسمع أنباء الأمور الصحائح

وأنا أعلم أنك لن تسعى إلى لقائي، لأنك تؤثر غربتك وتألف ما أنت فيه من كسل. فأنا أسعى إلى لقائك بهذا الكتاب، لاسمعك أنباء الأمور الصحائح عن رغبة منك فيها أو انصراف منك عنها، فما أحب لك أن تجهل مع الجاهلين وتخطيء مع المخطئين. وقد علمت أن مصر مازالت سباقة إلى الخير، نفاذة من المشكلات، حلالة للألغاز، فقد استكشفت مصر في هذه الأيام الشداد أن العلم ينفع ويضر ويحسن ويسيء، ينفع إذا استأثر به العلماء الذين يحسنون فهمه وتصريفه، ويضر إذا خلص إلى الجهلاء أو خلص إليه الجهلاء الذين لا يسيغونه ولا يعقلونه، ولا يحسنون التمثل له والانتفاع به.. شأنه في ذلك شأن السلاح الخطر الذي لا يحسن استعماله إلا من كان به خبيرا، وشأن العقاقير الخطرة التي لا ينبغي أن يخلى بينها وبين الذين لا علم لهم بالطب وطبائع الأمزجة والأجسام. وما رأيك لو أبيحت القنابل الذرية للناس جميعا، وما رأيك لو أصبحت ألوان السم الزعاف قريبة التناول من أيدي الناس جميعا. فالعلم أشد خطرا من القنابل الذرية لأنه يبتكرها، وهو أشد خطرا من السم الزعاف لأنه ينشئه ويركبه ويقدر حظه من كل دواء.

وقد لاحظت مصر فى هذه الأعوام الأخيرة أن قليلا من علم العلماء قد خلص إلى جهل الجهلاء، ففسدت لذلك أمور الناس وأخلاقهم وصلاتهم وأحكامهم على الأشياء وتصورهم للحياة. فشكا من لم يألف الشكاة، وسخط من لم يعرف السخط، ورضى من لم يكن له حظ من رضا، وأمن من لم يكن ينبغى له الأمن، وخاف من لم يكن للخوف إليه سبيل.

ونظرت مصر فإذا أهلها ساخطون صاخبون قلقون مضطربون، لا يرضون عن شىء ولا يرضى عنهم شىء، قد عبسوا للحياة وعبست لهم الحياة، حتى أنكرتهم شمسهم المشرقة، وأنكروا هم شمسهم المشرقة، حتى ضاق بهم نيلهم الهادئ السمح، وود لو تحول عن واديهم فشق مجراه فى الصحراء حتى لا يرى هذه الوجوه العابسة، وهذه النفوس المظلمة، وهذه القلوب التى بعد عهدها بالاطمئنان.

هنالك التمست مصر لهذه الآفات الطارئة أسبابها وبحثت عن مصادرها، فلم تجد لها سببا ولا مصدرا إلا هذه المعرفة التى تنسل من الجامعات ومعاهد العلم.. فتلم بالأندية والدور، وقد تتسكع فى الشوارع والحقول، فتصادف عقولا خلقت للجهل والغفلة، وقلوبا خلقت للجمود والهمود، فتفسد على الناس أمورهم كلها. وليس أحب إلى مصر من أن يكون أهلها علماء، ولكن الحرية والعلم من هذه الأشياء الخطرة التى لا ينبغى أن تعطى للناس بغير حساب، وإنما يجب أن تقطر لهم تقطيرا وتقدر لهم تقديرا، ويقتر عليهم فيها تقتيرا. من أجل ذلك، ومن أجل

ذلك، ومن أجل ذلك وحده، آثرت مصر سلامة أبنائها من أن يسرفوا على أنفسهم فى العلم، وما يستتبع من الحرية وتنبه الشعور، فندبت شرطتها وجيشها لحمايتهم من هذا الخطب الملم والوباء المبيد.

لهذا، ولهذا وحده، ضرب حول الجامعات ومعاهد العلم بهذه الأسوار الكثاف الصفاق من قوة الشرطة والجند حماية للجاهلين من علم العلماء، وحماية للعالمين من جهل الجهلاء، فمخالطة الجهلاء خطر على المتعلمين، ومخالطة العلماء خطر على الجاهلين، والدولة الرشيدة الحازمة خليقة أن تفرق بين أولئك وهؤلاء، وألا تصل بينهم الأسباب إلا بمقدار.

وقد لاحظت مصر أن هذه القصة ستثير مشكلة من أشد المشكلات عنفا وأعظمها تعقيدا. فشرطتها محدودة، وجيشها معدود قليل العدد، وهما لا يكفيان لحماية الناس من علم العلماء وعدوان المعتدين، وإنما يكفيان لحمايتهم من أحد هذين الشرين لا منهما جميعا. ففكرت، وقدرت، ودبرت، ورأت أن شر العلم أشد خطرا من شر العدوان، فالمجرم الواحد أو المجرمون الكثيرون يصيبون الشخص الواحد أو الأشخاص فى الأماكن النائية والمواطن المتباعدة على حين تفسد القطرة الضئيلة من العلم والمعرفة عقولا وقلوبا كثيرة لا يبلغها العدد. من أجل ذلك نقلت إليك الصحف، وقال لك القائلون، إن أمور الأمن تضطرب فى مصر بين حين وحين، فيصرع هنا قاض، ويخطف هنا

معلم وتسرق دار فى هذه المدينة أو تلك، وتقع موقعة فى قرية من قرى الشمال أو من قرى الجنوب.. لا ينشأ هذا عن تقصير من أولى الأمر، ولا عن تفريط فى جنب الأمن، وإنما ينشأ هذا عن موازنة بين ألوان الشر، واختيار لأخف الضررين، وإذعان لأحكام الضرورات الملجئة، والناس ساخطون دائما ناقدون دائما، تطول ألسنتهم فتسرف فى الطول، وتجمح أقلامهم فتغلو فى الجموح، وتحميهم الدولة من العدوان فيشكون من انتشار العلم، وتحميهم الدولة عن انتشار العلم فيشكون من انتشار الإجرام، وينسون قول الشاعر القديم:

اذا لم يكن إلا الأسنة مركبا   فلا رأى للمضطر إلا ركوبها

هذه يا سيدى هى بعض الأنباء الصحائح التى أشار إليها أبو العلاء، وما أكثر الأنباء الصحائح فى هذه الأيام، وما أقل فهم الناس لها وتعمقهم لحقائقها، وما أجدرنى بأن أحدثك بألوان منها، لتعلم أين نحن وأين أنت، ولتوازن بين حياتك المطردة وحياتنا المضطربة.

ولكن أعلم أنك لا تريد أن توازن ولا أن تقيس على أن تعرف من أمرنا شيئا، وما أنت وحياتنا هذه الخصبة التى تتعب وتشق لكثرة ما فيها من الخصب الذى يغزو القلوب والعقول. ألم تحدثنى فى آخر كتبك إلى بأنك تؤثر نعمة الجهل على شقاء العقل.. فانعم بجهلك حيث أنت، ودع لنا ما نحن فيه، وتقبل تحية كلها رثاء لك وإشفاق عليك.

إخوان الصفاء

لم أضق بكتابك حين تلقيته ولا حين قرأته. لأني تعودت في هذه الأعوام الأخيرة أن أتلقى أمثاله في غير ضيق، وأن أقرأها في غير ملل، وأن أنشد بعد قراءتها قول أبي العلاء رحمه الله:

وإذا أضاعتني الخطوب فلن أرى
لوداد إخوان الصفاء مضيعا
خاللت توديع الأصادق للنوى
فمتى أودع خلي التوديعا

ولا يثقل عليك هذا البيت الثاني وما فيه من تكلف، فلابد من أن تقبل الشعراء على علاتهم. وعلة أبي العلاء أنه عاش في عصر تكلف وتصنع، فلم يكن له بد من أن يتكلف ويتصنع. وقد أراد أن يذكر كثرة توديعه للأصدقاء وضيقه بفراقهم، وأن يتمنى على الدهر، لو أن الدهر يستجيب لمن يتمنى عليه، أن يريحه من الوداع وما يثير في القلب من الحزن والأسى، وما يغمر النفس به من اللوعة والاكتئاب. فسلك إلى معناه القريب طريقه هذه البعيدة، وزعم أن توديع الأصدقاء قد أصبح له صديقا بغيضا ود لو يخلص من صداقته وعشرته.

فاقبل لفظ أبي العلاء كما تيسر له وكما نقل إليك، وقف عند

معناه فإنه خليق أن تقف عنده، لأنه يصور نفسا كريمة، وقلبا ذكيا، وضميرا وفيا، وحرصا أشد الحرص على الوفاء. وهو على ذلك يصور ذات نفسك وذات نفسي في شيء من القصور لا من التقصير فكلانا حريص مهما تضعه الخطوب على ألا يضيع ود الأصدقاء، وكلانا يجد في استبقاء المودة والاحتفاظ بالإخاء راحة وروحا، ولذة ومتاعا، ولكن كلينا ممتحن، لا بكثرة التوديع للأصدقاء للنوى، ولكن بكثرة التوديع للأصدقاء للموت، أو للقطيعة التي هي شر من الموت. فأنت لا تفقد صديقك الذي يستأثر به الموت من دونك .أو قل إنك لا تفقده كله، وإنما تفقد محضره، وتحرم لقاءه، وتبقى لك منه ذكرى فيها كثير من حسرة وأسى، ولكن فيها كثيرا من دعة النفس ورضا القلب، وراحة البال. تحزن لأنك لا تلقاه ولا تنعم بعشرته، وترضى لأنك تذكر صفاء مودته وصدق إخائه، وأنه قد وفى لك وإنك وفيت له، وأنه قد فارقك راضيا عنك وأنك قد فارقته راضيا عنه. فتجد في هذا الشعور شيئا من عزاء. وتضيف هذه الذكرى إلى هذا الكنز النفيس الذي يغنى به قلبك، وتنعم به نفسك، وتستريح إليه كلما ضاقت بك الدنيا أو كربتك الخطوب.

أما القطيعة فإنها لا تترك في قلبك إلا الحسرة الخالصة واللوعة المصفاة. وويل للقلوب من الحسرة الخالصة، فإنها تلتهم الحياة كما تلتهم النار الحطب. وويل للنفوس من اللوعة المصفاة، فإنها

أفتك بها من السم الزعاف.

وأنت تشكو إليّ تنكر فلان لك وازوراره عنك وتأليبه عليك. وماذا تريد أن أصنع وقد تنكر لي قبل أن يتنكر لك، وازورّ عني قبل أن يزور عنك، وألب علي قبل أن يؤلب عليك. وهلا سرت فيه سيرتي ولقيت قطيعته كما لقيتها ؟ فإني لم أشك إليك ولم أشك إلى أحد من تنكره وتنمره وازوراره، وإنما طويت عن هذا كله كشحا، وضربت عنه صفحا، وأضفته إلى هذه المحن التي يمتحن الناس بها في هذه الأيام، والتي لا حاجة إلى إحصائها لأنها أكثر من الإحصاء، ولا إلى التفكير فيها لأنها قد كثرت وكثرت حتى أصبحت أهون من أن نفكر فيها أو نقف عندها أو نضيع في استعراضها ما بقي لنا من الوقت والجهد والنشاط. فأقبل على الناس ما أقبلوا عليك، وأعرض ما أعرضوا عنك، وامنحهم من قلبك صفوه وعفوه. لا تضمر لهم كيدا ولا تبغهم شرا، ولا تدخر عليهم موجدة، وأرح نفسك وأرحني، وأرح الناس من شكوى الزمان، والتبرم بالإخوان، والحزن لقطيعة الصديق، والأسى لغدر الخليل. وألق عن نفسك هذه الفكرة الخاطئة، فإن الزمان لم يتغير وإن طبيعة الناس لم تتبدل، وليس الزمان الذي تعيش فيه بشر من الزمان الذي عاش فيه أسلافك، وليس الجيل الذي تعاشره بشر من الجيل الذي عاشره الآباء والأجداد. فالشمسُ تجري لمستقر لها منذ كانت الشمس، والنهار والليل يستبقان منذ كان الليل والنهار والانسان

هلوع منذ كان الإنسان، يجزع إن مسه الشر، ويجزع إن ظن أن قد يمسه الشر، ويبخل إن مسه الخير، ويهيىء نفسه للبخل إن ظن أن قد يمسه الخير.

وصاحبك هذا الذى جفاك بعد صفاء، ونبا جانبه بك بعد لين: هلوع كغيره من الناس، أشفق أن تجر عليه مودتك شرا فاتقاه بسد الذرائع كما يقول الفقهاء، وخاف على ما فى يده من الخير أن ينقصه اتصاله بك فاستبقاه بقطيعته لك وابتغى منه المزيد. ففيم تلومه وقد جرى مع طبعه وأرسل نفسه على سجيتها. فاتقى الشر ما وجد إلى اتقائه وسيلة، وابتغى الخير ما وجد إلى ابتغائه سبيلا !

* * *

وحضارة الناس متكلفة، كانت بعد أن لم تكن، واستحدثت شيئا فشيئا بعد أن عاش الناس دهرا لاحظ لهم منها ولا سهم لهم فيها. فليس غريبا أن تغلبها الغرائز بين حين وحين، وليس غريبا ألا تثبت لقوة الطبع، وسجية النفس، وحب الحياة، والتماس المنافع واستبقائها.

والصداقة أثر من آثار هذه الحضارة المتكلفة المكتسبة. فهى تجرى على وتيرتها وتسلك طريقها، وتتأثر بما تتأثر به من الخطوب والأحداث.

وأنت ترى الخوف يخرج الناس عن أطوارهم، ويذهلهم عن أقدارهم

وينسيهم ما يحسن وما لا يحسن، ويخفى عليهم ما يجمل وما لا يجمل، ويلبس عليهم ما يليق بما لا يليق. والقوانين المشروعة تغفر لهم ما يدفعهم إليه الهلع والفزع من المآثم والموبقات. وقد هلع صاحبك حين رأى الأمر إلى من لا يحبك ولا يدانيك، فمال مع الريح، وانعطف مع المنفعة، وآثر نفسه بالخير، وضحى بالود القديم، فاغفر له واصفح عنه، ولا تضع نفسك فى موضعه، ولا تقل إنك قد امتحنت بمثل محنته فوفيت للصديق وضننت بالإخاء، فليس كل الشجر يثبت للريح العاصفة، وإنما يثبت لها الشجر الضخم الذى رسخت أصوله فى الأرض وارتفعت فروعه فى السماء. فقل إنك شجرة تثبت للريح وإن صاحبك هذا نجم يميل معها كل مميل.

ولا تقل: إن الناس يخطئون حين يسرفون فى الصداقة، ومن حقهم أن يبخلوا بها، ويبذروا المودة، ومن حقهم أن يحرصوا عليها ويقتصدوا فيها، لأن حياتهم قصيرة والصديق الوفى نادر قليل. فكل هذه خواطر وآراء لا تخطر إلا للذين تأصلت فى نفوسهم الحضارة، ورسخت فى قلوبهم المودة، كما رسخت فى الراحتين الأصابع على ما يقول قيس ابن ذريح. وهؤلاء هم الصفوة القليلة التى لم تخلق لتشيع وتكثر، وإنما خلقت لتقل وتدخر، وتكون مضربا للمثل، وموضوعا لأحاديث الكتب، ومسرحا لخيال الشعراء.

***

وأنت قد قرأت الكتب، ورويت الأخبار، ووعيت الآثار، وحفظت الحكم النادرة والأمثال السائرة، وعلمت فيما علمت أن من حماقة الإنسان أن يبخل بالمال ومن حقه أن ينفقه في وجوهه بغير حساب، وأن يسرف في الصداقة ومن حقها أن يبخل بها أصحابها أشد البخل وأعظمه وأقساه، لأن المال غاد ورائح يذهب عنهم اليوم وقد يعود إليهم غدا، ولأن الصداقة ليس من طبيعتها الغدو والرواح ولا المجيء والذهاب، وإنما طبيعتها الثبات والاستقرار. فإذا رأيت من يبخل بالمال حين يجب إنفاقه، فاعلم أنه أحمقّ سفيه، وامنحه من نفسك ازدراءها في غير هوادة ولا رفق. وإذا رأيت من يسرف في الصداقة ويبذرها تبذيرا، فاعلم أنه شرير من إخوان الشياطين، وامنحه من نفسك مقتها وغضبها في غير مهل ولا إناة. وارفع نفسك على كل حال عن الاحتفال بمن يبخل بالمال، والالتفات إلى من يسرف في الصداقة، وَكِلْهُمَا جميعا إلى غرائزهما الجامحة وطبائعهما المنحرفة، لا تقدر لهما قدرا ولا ترج لهما وقارا ولا تحسب لهما حسابا، ولا تكلف نفسك في سبيلهما حزنا ولا ألما ولا عناء، فهما أهون من ذلك وأقل شأنا.

أما بعد، فقد تلقيت كتابك وأنا أنعم بحياة راضية لا لغو فيها ولا تأثيم، قوامها القراءة ومعاشرة هؤلاء الأصدقاء الذين لا يملون ولا يثيرون في أنفسنا الملل.. الذين يستجيبون لنا إذا دعوناهم،

ويمنحوننا الروح إذا استرحنا إليهم. لا يمنون، ولا يتجنون، ولا يتكلفون المعاذير ولا يتلمسون العلل، وإنما يستجيبون لنا هونا حين ندعوهم، وينأون عنا هونا حين ننصرف عنهم، لا يتعللون ولا يتعتبون ولا يتكذبون ولا يفسدون علينا الحياة بالمكر والكيد والرياء والنفاق. يظهروننا على ذات نفوسهم في أصرح الصراحة وأصدق الصدق وأوفى الوفاء.

أتعرفهم ؟ إنهم إخوان الصفاء حقا، إنهم جديرون بأن نمنحهم ودنا فى غير تحفظ، ونخلص لهم حبنا فى غير اقتصاد. فلن نجنى من ذلك إلا خيرا. إنهم الكتب يا سيد ! الكتب التى يكتبها الناس على اختلاف طبائعهم. وتفاوت حظوظهم من نقاء القلوب، وصفاء الطباع، واعتدال الأمزجة، وطهارة الضمائر.

أليس عجيبا أنك تقرأ الكتاب فتجد فيه غذاء قلبك وعقلك وذوقك ؟ تجد هذا كله صفوا لا يكدره مكدر ولا يشوبه شائب. فإذا بحثت عن كاتبه فعسى أن تعرف أنه كان أنكد الناس حياة، وأكدرهم طبعا، وأسوأهم مزاجا. فأعجب للخير المحض يستخلص من الشر المحض، وللنقاء النقى يستخلص من الدنس. صدقنى إذا ضقت بالناس فتعز عنهم بما يكتب الناس، واحمد لهم بعد هذا كله أنهم يسيئون كثيرا ولكن بينهم قوما يحسنون كثيرا، وأنهم يجرحون القلوب ولكن بينهم قوما يأسون الجراح.

فاعرف لهم ذلك واغفر لسيئهم شكرا لمحسنهم، واقبلهم آخر الأمر على علاتهم، واذكر دائما قول أبي العلاء:

وهل يأبق الإنسان من ملك ربه

فيخرج من أرض له وسماء ؟!

رسالة السراب

لو استمعت لنفسك ولي لم تشق بما أنت فيه الآن من ألم لاذع، وحزن مر، وهم ثقيل، وعناء طويل، ولكنك أعرضت عن نفسك، وأعرضت عني، واستمعت لدعاة السوء، فأرهقوك من أمرك عسرا، وحملوك من أعباء الحياة ما لا تطيق.. والناس يجربون وينتفعون بالتجربة، حين يستقبلون الحياة، صبية أو شبابا أو كهولا.. فأما حين يتقدم بهم السن، وتلم بهم الشيخوخة، ويسرع إليهم الفناء، ويأخذون في الانحدار بعد أن أتموا حظهم من التصعيد، فإن التجربة لا تعود عليهم إلا بما يملأ النفوس كمدا، والقلوب يأسا وأسى..

ذلك لأنهم لا يستطيعون أن يستقبلوا من أمرهم ما استدبروا، ولا أن يصلحوا من سيرتهم ما أفسدوا، ولا أن يجددوا من حالاتهم ما أبلوا، تضيق عن ذلك حياتهم المتقاصرة، وتعجز عن ذلك هممهم المتفانية، فيستقبلون حياة شاحبة ممتقعة، تأخذها الحسرات من جميع أطرافها حتى إذا أقبلت تلك الساعات القصار، التي يودع الناس فيها حياتهم، وتعرض عليهم فيها أعمالهم، رأوا خيرا كثيرا قد ألغوه إلغاء، وألقوه إلقاء وانسلوا منه كما تنسل الشعرة من العجين، وشرا كثيرا قد تهالكوا عليه، كما يتهالك الذباب على العسل، ويتساقط فيه

كما يتساقط الفراش فى النار. فندموا حين لا ينفع الندم عنهم شيئا، وأسفوا حين لا يتيح لهم الأسف رجوعا إلى الخير ولا خلوصا من الشر، ولا استدراكا لما فات، واستقبلوا موتا مظلما، يخرجون إليه من حياة مظلمة، ولو قد استمعوا لأنفسهم ووفوا لضمائرهم، وأصغوا لأصدقائهم الذين محضوهم وأخلصوا لهم النصح، لكانوا خليقين أن يستقبلوا موتا مشرقا مريحا، يخرجون إليه من حياة مشرقة مريحة، ولكن صوت المنفعة، ودعاء الغرور أسرع إلى بعض القلوب من صوت المودة ودعاء الوفاء للنفس والصديق جميعا.

دع ما أنت فيه الآن من حزن وألم، ومن حسرات وزفرات، ومن هم وآسى، واستقبل من أمرك ما استدبرت فى الخيال ساعة أو بعض ساعة، وانظر إلى نفسك فى أيام الصبا والشباب فسترى حياة ساذجة حلوة لم تلق فيها منك شرا، كنت مسلما بالمعنى الذى بينه الحديث الشريف لأنك أسلمت الناس من لسانك ويدك، وأسلمتهم من قلبك وضميرك أيضا، فلم تسىء بهم الظن، ولم تضمر عليهم الحقد، ولم تدبر لهم الكيد.. كنت وديعا كل الوداعة، سمحا كل السماحة يسيرا كل اليسر، فجرت أمورك مع الناس، وجرت أمور الناس معك، على هذه الخصال - لم تلق منهم ولم يلقوا منك إلا خيرا. وأحبك الأصدقاء حبا صفوا لا تشوبه ريبة، ولا يكدره شك،

ولا يبلغه سوء الظن، حتى امتزج قلبك بقلوبهم، وضميرك بضمائرهم، فكنت تشاركهم ويشاركونك في الحس والشعور. وكنت تشاركهم ويشاركونك في تقدير الأشياء والأحياء، وفي الحكم على الأشياء والأحياء، كانوا يقرءون في قلبك وكنت تقرأ في قلوبهم، قد ألغيت بينك وبينهم الحجب، وألقيت من بينك وبينهم الأستار.. كنت تعيش معهم وكانوا يعيشون معك، في الأرض وكأنما كنت تعيش معهم وكأنما كانوا يعيشون معك في السماء، كنت تلقاهم، وكانوا يلقونك، فتنعمون جميعا بهذا اللقاء الصفو، وكنت تفارقهم وكانوا يفارقونك فلا تجدون لهذا الفراق ألما ولا حزنا، لأنك كنت تستبقيهم في قلبك، وتناجيهم حين تخلو إلى نفسك، ولانهم كانوا يستبقونك في قلوبهم، ويناجونك حين يخلون إلى أنفسهم.

وكذلك أنفقت الصبا والشباب، وكذلك أنفقوا الصبا والشباب، ثم أقبلت وأقبلوا على سن الشيوخ، فمضيت ومضوا في هذه الطريق المستقيمة، المشرقة السهلة، التي لا عوج فيها ولا أمت، ولا انحراف فيها ولا التواء، ولكن الأقدار كانت قد أرصدت لك في هذه الطريق شيطانا من شياطين الجن، تنكر لك في شعاع من أشعة النور التي كانت، تغمر هذه الطريق، أو في نفحة من نفحات النسيم التي كانت تترقرق في ذلك الجو، أو في نبرة من نبرات الطير التي كانت

تتغنى علـى تلك الغصون فتنفـذ إلى ضميرك من طريـق العين، أو من طريق الأنف، أو من طريق الأذن لا أدرى، ولكنه لم يكد يبلغ ضميرك، حتى استقر فيه، ولم يكد يستقر فيه حتى استأثر به، ولم يكد يستأثر بـه حتـى غـير حياتك كلهـا تغيـيرا.. فإذا أنـت تنحرف عـن طريقك المستقيمة، إلى طـرق أخرى ملتوية متشـعبة، وإذا أنــت تؤثر الظلمة على النور، وتستحب الهواء الخانق على النسيم الطلق، وتفضل فحيح الحيات على غناء الطير.

وأنـت تسـعى إلى المنافـع والمنافـع تسـعى إليك، وأنـت تصعد إلى السلطان والسلطان يهبـط إليك، وقـد امتدت لـك أسـباب الغرور، وكثـرت أمامـك طرق الفتنـة ومروجها الخضـرة، التي تخدع العيون ولا تغنـى عـن القلـوب والضمائـر شـيئا. وإذا أنـت تمضـى أمامـك، وترجـع أدراجـك، وتنحرف إلى يمـين، وتنحرف إلى شمــال، ترتع هنا وهنـاك، ومن حولك رفاق السـوء ينحرفون كما تنحـرف، وينعطفون كمـا تنعطـف، يقضمون كما تقضـم ويقطفون كما تقطـف، ويجتنون كما تجتنى، ويلتهمون كما تلتهم..

وأنتـم كذلك لاهون ساهون قد غركم بالله وبأنفسكم الغرور، وإذا أنـت ثـائـب إلى نفسك تسـألها أيـن هـى ... ؟ ومتى ذهبت عنك؟ ومتـى عادت إليـك..؟ وإذا أنت تتلـو، ولكـن بعد فـوات

الوقت قول الله عز وجل فى سورة النور:

﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن
ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه
حسابه والله سريع الحساب (٣٩)﴾

المحتويات

العدد القادم

زوجة أبى
سيدة من الزمن الجميل
عفاف عزيز أباظة

اشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الاشتراك السنوى :

- داخل جمهورية مصر العربية ٣٦ جنيهًا.

- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٥٠ دولارًا أمريكيًا.

- الدول الأجنبية ٧٥ دولارًا أمريكيًا.

تسدد قيمة الاشتراكات مقدمًا نقدًا أو بشيكات بإدارة الاشتراكات بمؤسسة الأهرام بشارع الجلاء - القاهرة.

أو بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة

رقم الإيداع	٢٠٠٥/٥٠٥٠	
الترقيم الدولى	977-02-6790-2	ISBN

١/٢٠٠٤/٦١

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

نفـوس النـاس معادن ، ومـن المعادن مـا يعلوه الصـدأ ، ومنها مالا يجد الصدأ إليه سـبيلا .. وصدق اللـه تعالى حين قال عن النفس البشـرية «إن النفس لأمارة بالسوء» .

فهناك صنف من الناس لا يفرق بين خير وشـر ، وليـس للفضيلـة عنـده وزن ، وهناك مـن يتلذذ بالوشاية والوقيعة بين الصديق والصديق ، وما أكثر ما قال الشعراء فى الوشاية بين المحبين .

والإنسـان فى هذا كله يجهل نفسه جهلا شديدا حتى مع تقدم السن ووصوله إلى زمن الشيخوخة .

هذا الكتاب يعـرض الكثير مـن النماذج للنفس البشرية الأمارة بالسوء ، وهى مرآة يرى كل إنسان نفسـه فيها ، لكن يمكنك أن تكون صادقا مع نفسك ولا تجعلها نفسا للبيع .



٤٠٧٦٣٨/٠١

